مسيرة الثقافة والحضارة الأندلسية برواية القاضي صاعد

الدكتور غلامرضا جمشيد نژاد أوّل
عضو الهيئة العلمية في مؤسسة دائرة المعارف الإسلامية

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

تمهيد

الاندلس اسم أطلقه المسلمون على شبه جزيرة آيبريا، وقد حددها *القاضي صاعد* بأنها تقع شمال البحر الأبيض المتوسط، ويحدها من الشمال والغرب المحيط الأطلسي، ومن الشرق سلسلة جبال بيرينة، وقد سكن المنطقة، قبل الفتح الإسلامي في ٩٢ هـ / ٧١١ م، الأقوام «الآيبيرية» و «الوندال» و «والجوت» وحكموها. وبعد الفتح حكمها العرب فترة من الزمن، ثم أسس *عبدالرحمن* الداخل الحكم الأموي في الأندلس، واختار قرطبة عاصمة له، وسار وفق سياسة جامعة. وبعده حكم ابنه *هشام* ثم *الحكم الأول بن هشام*، ثم *عبدالرحمن الثاني* (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ) سائرين على سياسة المؤسس. خلال ذلك استطاعت قرطبة أن تجتذب العلماء والفنانين من بغداد والشرق الإسلامي، ومعهم سيل كتبهم. وهذا الاتجاه الثقافي والفني حمل أهل آيبريا على الافتتان بثقافة الشرق وأغرموا بالحضارة الإسلامية حتى أنهم أطلقوا على تلك الفترة اسم «الولادة الجديدة الأُولى». وبعده حكم ابنه الأمير محمد (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ)، وهي الفترة التي يسميها *القاضي صاعد* فترة الازدهار وعصر العلوم في ذلك البلد.

ثم حكم *الامير عبدالله* وبعده *عبدالرحمن الثالث* الذي حكم من ٣٠٠ إلى ٣٥٠ هـ فأحكم الوضع الداخلي وتبادل السفراء مع الدول الأوروبية، وشيد مدينة جديدة باسم الزهراء في شمال غرب قرطبة عند سفوح جبل العروس، وكانت فريدة في جمالها.

وبعده جاء ابنه *الحكم الثاني* الذي استمر في سياسة التنمية، وكما يقول *القاضي صاعد*، أرسل وفوداً إلى مختلف نقاط الشرق الأدنى وأمرهم بجمع كتب العلوم القديمة أو

استنساخها، فكان أن امتلأت مكتبة قصره بنحو ٤٠٫٠٠٠ كتاب. وأخذ البيعة لابنه، *هشام الثاني* الذي حكم من ٣٦٥ إلى ٤٠٠ هـ إلّا أن الأمور لم تجر حسبما كان قد خطط لها، وذلك لأن الأُسرة العامرية، أي *المنصور* ومن ثم ابناءه، *المظفر وعبدالرحمن*، استولوا على الخلافة، وكانت خلافتهم، كما يقول *صاعد*، فاجعة نزلت بالثقافة والحضارة الإسلامية في الأندلس، وأدت إلى ظهور مرحلة ملوك الطوائف، الذين لم يستطيعوا إيقاف هجمات الأسبان. وفي ٤٤٧ هـ سقطت صملنكا، واستولى *ألفونسو السادس* على أشبيلية سنة ٤٧٦ هـ وعلى طليطلة سنة ٤٧٨ هـ عندئذ طلب الفقهاء العون من المرابطين (٤٨٠ ـ ٥٤٠ هـ) لمواجهة هجوم الأسبان. *يوسف بن تاشفين* المرابطي هزم ألفونسو في معركة زلاقة (٤٧٩ هـ)، ولكن لا هو ولا الذين جاؤوا بعده استطاعوا أن يصدوا هجمات الأسبان والبرتغاليين المتوالية، واستولى *ألفونسو السابع* على قرطبة، و*ألفونسو الأول*، حاكم البرتغال، على لشبونة، وقام الموحدون (٥٤٠ ـ ٦٢٢ هـ) مقام المرابطين، وهزموا *ألفونسو الثامن* في حرب أرك (٥٢٩ هـ)، ولكنه انتصر في حرب العقاب (٦٠٩ هـ). ثم بعد استيلاء *فرديناند الثالث* (٦١٤ ـ ٦٥٠ هـ) حاكم ليون، على قشتالة، استولى أيضاً على قرطبة وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة (٦٤٦ هـ)، ثم استولى على قادس سنة ٦٤٨ هـ وتوقف أمام غرناطة التي كانت تحت حكم بني الأحمر (٦٢٩ ـ ٨٩٨هـ) من بقايا ملوك الطوائف، فقد استطاعوا الوقوف بوجه الأسبان مدة قرنين ونصف. في تلك الفترة التحق ملوك أسبانيا المسيحيون بالمؤسسة المشؤومة، محاكم تفتيش العقائد (٦٢٩ هـ)، فاضطر مسلمو أسبانيا، الذين كانوا يواجهون سكين مقصلة هذه المحاكم إلى الهجرة إلى ايطاليا وجنوب فرنسا وشمال افريقيا ونقاط أخرى خلال ٨٩٧ ـ ١٠٨٨ هـ.

المقدمة

القاضي صاعد الأندلسي (٤٢٠ ـ ٤٦٢ هـ / ١٠٢٩ ـ ١٠٧٠ م) الفيلسوف، والفقيه، والمؤرخ، ورجل الدين والإجتماع، والرياضي، والمنجم، والراصد للنجوم، والرئيس العلمي لمرصد طليطلة، وواضع أُسس علم الأعراق البشرية (Ethology) وعلم الانسان (Amthropology)، ومؤسس مدرسة خاصة في التدوين التاريخي في أسبانيا الإسلامية حيث تتقدم «الوقائع» على «الأفكار» وتسجيل تحولاتها. وقد كان في فلسفة التاريخ والاجتماع من المتقدمين على *ابن خلدون*، وألف كتباً عديدة، منها: إصلاح حركات النجوم والتعريف بخطأ الراصدين، وجوامع أخبار الأُمم من العرب والعجم، ومقالات أهل الملل والنحل، والزيجات وجداول طليطلة النجومية، والتعريف بطبقات الأُمم.

ولما كانت هذه الشخصية الجامعة وذات الفنون المتعددة المسلمة تكاد تكون مجهولة، وحتى على الصعيد العالمي لم يسبق أن درست هذه الشخصية السامية دراسة تليق بها، لذلك فكر الكاتب قبل سنوات في القيام بالتحقيق في حياة *القاضي صاعد الأندلسي* وآرائه ومؤلفاته، فقمت بتحقيق كتابه التعريف بطبقات الأُمم تحقيقاً نقدياً، وفي سنة (١٣٧٦ هـ. ش) قام بطبعه (دفتر نشر ميراث مكتوب)، كما أن ترجمته إلى الفارسية مع التعليقات والإيضاحات جاهزة للطبع. كذلك الحال مع الزيجات وجداول طليطلة النجومية الذي أكمله زميله *الزرقاني* (٤٢٠ ـ ٤٨٠ هـ / ١٠٢٩ ـ ١٠٨٧ م)

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

وترجمه *جيرارد كريموناي* إلى اللاتينية، ثم قام *إرنست زينر* بدراستها في مقالة بعنوان «زيجات طليطلة» (*أوزيريس*، ١٩٣٢، ج ١، ص ٧٢٧) وهي الآن بسبيلها إلى الإنجاز.

هذه المقالة التي أُقدمها الآن إلى القراء الكرام تغطي جانباً من «تحقيق في حياة القاضي صاعد وآرائه ومؤلفاته»، وهي تحقيق في تاريخ الثقافة الأندلسية وحضارتها بصفتها موطن *القاضي صاعد*، من وجهة نظره هو.

الموقع الجغرافي

أبو الفداء يضبط لفظة الأندلس بفتح الألف وسكون النون وفتح اللام، وهناك من يضم اللام [*البغدادي*، ١٩٥٤ م، ج ١، ١٢٣ / *آل علي* ١٣٧٠ هـ. ش ٧][1]، وهو الاسم الذي أطلقه العرب والمؤرخون المسلمون على شبه جزيرة آيبيريا [دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٣٣م، ج ٣، ٣٥].

تقع شبه الجزيرة هذه في أقصى الجنوب الغربي لقارة أوروبا [*حميدة*، ١٩٨٨ م، ج ١، ٣٢ و ٩٧]، واليوم تشغلها دولتا أسبانيا والبرتغال، وتبلغ مساحتهما معاً نحو ٥٩٦ر٧١٩ كيلو متر مربع، [*حميدة*، ج ١، ص٣٢ و ٩٧ / *احمد صادق*، بلا تاريخ، ج ١، ص ٣٥٠].

الأندلس التي كانت تطلق على تلك المساحة الواسعة، خلال القرون الثمانية من حكم المسلمين عليها، لم تكن شاملة ثابتة، بل إن سعتها تحددت بالتدريج [دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣، ص ٣٦].

القاضي صاعد، عند تأليفه كتابه التعريف بطبقات الأمم، يعني سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨ م، وصف حدود الأندلس بأنها تحد البحر الأبيض المتوسط، مقابل طنجة حتى المضيق المعروف بمضيق جبل طارق (١٢ ميلاً)، ومن الشمال والغرب يحدها المحيط الأطلسي، ومن الشرق سلسلة جبال بيرينية [*القاضي صاعد*، ١٣٧٦ هـ. ش، ٢٣٦ و ٢٣٧]. وقال عن موطنه، مدينة طليطلة، إنها تقع على خط العرض الجغرافي ٥ر٣٩ درجة وخط طول يقرب من ٢٨ درجة، ويعتبرها من المدن القديمة التي تقع في الوسط من الإقليم الخامس [دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣، ٢٣٦ - ٢٣٧].

ويرى *القاضي صاعد* أن أضيق نقطة عرض في الأندلس هي مدينة الجزيرة الخضراء التي تقع على خط عرض ٣٦ درجة، وأن أعرض نقطة هي إحدى المدن على الساحل الشمالي وتقع على خط عرض ٤٣ درجة [*القاضي صاعد*، ٢٣٨].

ثم يستنتج أن أكبر جزء من الأندلس يقع في الإقليم[2] الخامس، وأصغره يقع في الإقليم الرابع، مثل مدينة إشبيلية، ومالقة، وقرطبة، وغرناطة، والمريّة، ومرسية، ويضيف أن جبال البيرينية تقع حاجزاً طبيعياً بين الأندلس وفرنسا التي تعتبر جزءاً من أرض الفرنجة الواسعة [*القاضي صاعد*، ٢٣٨].

على الرغم من أن *القاضي صاعداً*، شأنه شأن أكثر الجغرافيين المسلمين، يعتبر الأندلس آخر جزء معمور في غرب الأرض المتصلة بالاقيانوس الأعظم، وأن ليس بعدها في المغرب عمران ولا سكان [*القاضي صاعد*، ٢٣٨ / الحميري، ١٩٨٠ م، ١]، إلّا أن هناك في بعض الكتب الجغرافية تقارير تحكي عن وجود أرض مسكونة بجماعات بشرية بعيدة في الغرب، كالبعد بين بغداد والأندلس [*ابن الفقيه*، ١٨٤٠م، ٨٨]، وهي من حيث الموقع تكاد تنطبق على القارة الأميركية.

أما فيما يخص وجه تسمية الأندلس، فثمة وجهان، الأول هو قول القدامى الذين يقولون إنه مأخوذ من اسم أحد أحفاد النبي *نوح* (ع)، واسمه *أندلس بن طوبال بن يافث*، وهو قول ليست له قيمة علمية، بل هو أسطورة [*مسعود*، ١٩٣٣ م، ٨٨]. والقول الثاني الذي يجمع عليه الباحثون هو أن لفظة أندلس مأخوذة من اسم قوم Vandales من العنصر الجرماني أو السلاخي الذين سكنوا شبه

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

جزيرة آيبيريا وأسسوا حكومة قوية امتد نفوذها الى شمال افريقيا وحكموا بعض مناطقه [*آل علي*، ٧].

من الثابت أن الفندال لم يكونوا اول قوم سكنوا هناك، فقد سكنها قبلهم قوم غير معروفين باسم الآيبيريين، ويمكن اعتبارهم أقدم الأقوام الذين استوطنوا تلك الأرض التي سميت باسمهم أيضا [*مسعود*، ٨٨].

القاضي صاعد لم يذكر تلك الأقوام بالاسم، بل أشار اليها عموماً قائلاً إن تلك الأرض قد تداولتها الأيدي المختلفة من يد إلى يد حتى وصل الحكم إلى الرومان الذين كانت عاصمتهم مدينة طالقة القديمة بالقرب من أشبيلية. وبعد فترة من الزمن هزم قوم Gothe الروم واتخذوا من المدينة الأندلسية القديمة الأخرى، طليطلة، عاصمة لهم، وحكموا البلد نحو ثلاثة قرون، حتى قضى المسلمون على حكمهم واتخذوا قرطبة عاصمة لهم [*القاضي صاعد*، ٢٣٦].

من الفتح الإسلامي حتى الحكم الأموي في الأندلس

في الوقت الذي كان فيه *موسى بن نصير* يستجيز الخليفة الأموي، *الوليد بن عبد الملك* (٨٦ ـ ٩٦ هـ / ٧٠٥ ـ ٧١٥ م) في فتح الأندلس، كان قد أمر مولاه وعامله على طنجة، *طارق بن زياد* البربري، أن يسير بسبعة آلاف من جنوده، في ٩٢ هـ / ٧١١ م ويعبر بهم في السفن التي قدمها جوليانوس، حاكم سبتة، عن طريق المضيق، الذي سمي فيما بعد باسم طارق، إلى الأندلس [*المقري*، ١٩٦٨ م، ج ١، ١٤٤ / *الگـــيلاني*، ١٩٢٤ م، ١٣ و ١٤ / *اولاغوئة*، ١٣٦٥ هـ. ش، ٧].

نجح *طارق* في العبور بجيش الإسلام إلى هناك واستولى على قرطاجنة الجديدة وأطراف الجزيرة، ووصلته الإمدادات من شمال إفريقيا، وهاجم *رودريك فيتيزا* ـ الذي أطلق عليه المسلمون اسم *لوذريق* ـ وهزمه في معركة الشريش بالقرب من خليج قادس في السنة نفسها (٩٢ هـ / ٧١١ م) [*المقري*، ج ١، ١٤٤ / *الگيلاني*، ١٣ ـ ١٤ / *أولاغوئة*، ٧].

ملك الغوث المهزوم، بعد خروجه من الأندلس، يحتمل أن يكون قد لجأ إلى لوزيتانيا، إذ إن *ألفونس الثالث* يقول في مذكراته إنه بعد فتح مدينة فيزو مر بمقبرة رأى فيها لوحة كتب عليها (مرقد *رودريك* ملك الغوثيين). كما أن هناك نصوصاً غير بعيدة من حيث الزمان حتى القرن ١٢ هـ / ١٨ م كان هذا المرقد في كنيسة سنت ميشيل، خارج سور المدينة، ما يزال موجوداً. كما أنه بالاضافة إلى السكة المضروبة باسم *رودريك* في طليطلة، فقد عثر على سكك أخرى باسمه في أجيتانيا، مدينة أخرى من مدن البرتغال [*اولاغوئة*، ٢٤٨].

أمور عدة شجعت *طارقاً* على الاستمرار في فتوحاته في سائر أنحاء تلك الأرض، من ذلك الهزيمة النكراء التي مني بها *رودريك* وخيانة أتباعه، وخاصة الأسقف *أباس*، والاختلاف الشديد بين الفوت الغربيين والأسبان الروم، والأهم من ذلك كله تذمر الشعب من استبداد *رودريك* في حكومته على أهل الاندلس، وهو ما يجب أن يعتبر من أكبر العوامل إطلاقاً [*الگيلاني*، ١٣].

يقول *القاضي صاعد* إن ذلك الفتح العظيم وقع في شهر رمضان ٩٢ هـ / ٧١١ م [*القاضي صاعد*، ١٥٥]. وهكذا استمر *طارق* في فتوحاته واستولى على غرناطة، وصلمنكة، وقرطبة (٩٣ هـ / ٧١٢ م)، وبعد أن استولى على نصف مساحة الاندلس، التحق به *موسى بن نصير*، الذي كان يحسده (٩٣ هـ / ٧١٢ م)، وزحف بجيش قوامه ١٠٫٠٠٠ جندي من العرب وأهل الشام، و ٨٠٠٠ من البربر واستولى في السنة نفسها على إشبيلية، وماردة، وفي السنة التالية (٩٥ هـ / ٧١٤ م) تقدم *طارق* نحو عاصمة الغوث، طليطلة، وبعد حصار شديد، استولى عليها، وبذلك سيطر على شبه جزيرة آيبيريا برمّتها

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

[*المقري*، ج ١، ١٤٤ / *الگيلاني*، ١١٧ / *اولاغوئة*، ٦].

عندما أشرف جيش المسلمين على جبال پيرينية، خطر في ذهن *موسى* أن يعبر من هناك لفتح جنوب أوروبا ليصل إلى دمشق عن طريق القسطنطينية، إلا أن الخليفة استدعاه، ثم بعد أن نصب ابنه، *عبدالعزيز* بمكانه حاكماً على إشبيلية، عاد هو ومولاه *طارق بن زياد*، الى الشام، مصطحباً معه ٣٠ر٠٠٠ أسير بمن فيهم ٤٠٠ من قادة الغوث [*المقري*، ج ١، ١٤٤]. كان هؤلاء القادة يرتدون التيجان ويحيط بكل منهم عدد من الخدم والعبيد لا يحصى عددهم يحملون الغنائم الكثيرة [*ابن عذاري*، ١٨٥١ ـ ١٨٨٤ م، ج ٢، ٢١]. وكان بين الأسرى ٣٠٠٠ من بنات الملوك وشخصيات الغوث [*ابن الأثير*، ١٩٧٩ م، ج ٤، ٤٤٨]، وكثير من الملابس والكنوز والتحف التي سلبوها من قصور الاندلس ومعابدها. من طليطلة وحدها غنموا تحفاً كثيرة، منها ٧٠ تاجاً ذهبياً وألف سيف مرصع بالأحجار الكريمة خاصة بالملوك، كما غنموا الكثير من اللؤلؤ والياقوت [*ابن الأثير*، ج ٤، ٤٤٨].

في سنة ٩٦ هـ / ٧١٥ م، عندما عاد موكب *موسى* و*طارق* من الاندلس الى دمشق بهرت أعين الناس كثرة الغنائم والاسرى [*ابن خلكان*، ١٩٧٧، ج ٣، ٢٦ / *اولاغوئة*، ٣٢ ـ ٣٣]. يومذاك كان *سليمان* قد خلف *الوليد*. وبعد تسلم الغنائم ألقى *موسى* في السجن، وأرسل من اغتال ابنه، *عبدالعزيز*، في اشبيلية (٩٧ هـ / ٧١٦ م) وجلب رأسه وألقوه امام *موسى* وأخذوا يعذبونه بشتى أنواع التعذيب بحيث أنه في أواخر عمره شوهد يستجدي في إحدى القرى البعيدة من توابع الحجاز. [*ابن خلكان*، ج ٣، ٢٦ / *اولاغوئة*، ٣٢ ـ ٣٣].

كانت الفتوحات مستمرة في الاندلس، وعلى امتداد الفترة التي كان فيها الولاة العرب يحكمون شمال افريقيا من جانب الخلفاء الامويين أو من جانب ولاتهم (١١٤ ـ ١٣٨ هـ / ٧٣٢ ـ ٧٥٥ م) كانت الحرب سجالاً مع الأسبان والمنازعات مع البربر، يضاف الى ذلك ما كان يقع بين قبائل العرب أنفسهم يومذاك في تلك الفترة. ولكن عند سقوط بني أمية ومجيء العباسيين (١٣٢ هـ / ٧٤٩ م) استطاعت تلك القبائل، برغم اختلافاتها فيما بينها، أن تختار *يوسف بن عبد الرحمن الفهري* لحكومتهم. فحكم ست سنوات، أي حتى ١٣٨ هـ / ٧٥٥م، ثم جاءت فترة حكم الأمويين في الاندلس [*الگيلاني*، ٢٢].

يعتبر *القاضي صاعد* فترة الـ ٤٦ أن الاندلس، كالفترات السابقة، «خالية من العلم» ويضيف قائلاً إن الاندلسيين في تلك الفترة لم يعنوا بأي علم سوى بالشريعة واللغة [*القاضي صاعد*، ٢٣٨]. ويقول أيضاً إن هذه الحالة استمرت حتى حوالي سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م [*القاضي صاعد*، ٢٣].

عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الاموية في الأندلس

أسس الدولة الأموية في الأندلس *عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان*، الملقب بالداخل، الذي حكم من ١٣٨ ـ ١٧١ هـ / ٧٥٥ ـ ٧٨٨ م. ذكروا أن ولادته كانت سنة ١١٣ هـ / ٧٣٣ م وأنه دخل الاندلس وعمره خمس وعشرون سنة. وعند دخوله استقبلته القبائل العربية، واختار قرطبة عاصمة له، وسرعان ما فرض سيطرته على أرجاء تلك الارض، وشيد جامع قرطبة خلال السنتين ١٦٩ ـ ١٧٠ هـ / ٧٨٥ ـ ٧٨٦ م وقد كلفه البناء نحو مئة ألف دينار، وجعله على طراز الجامع الاموي في دمشق، مؤلفاً من ٣٦٠ طاقاً قائمة على ٣٥٠ عموداً من المرمر، وجعل فيه ٩٠٠٠ مصباح للإضاءة. قبل بناء هذا الجامع كان المسلمون الفاتحون يقيمون عباداتهم وصلواتهم في نصف كنيسة *المنصور قديس* [*اولاغوئة*، ٢٧١ / *العبادي*، ١٩٧١ م، ١٥٠ / *كريزويل*، ١٩٨٤ م، ٢٨٥ ـ ٣٠٣ / *الگيلاني*، ٣٠ ـ ٣٢ و ٦٣].

واستمر *عبد الرحمن الداخل* في تشييد المدن وتعبيد

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

الطرق وإقامة الجسور، وفي زمانه اتسعت مدينة قرطبة من حيث شوارعها وضخامة عماراتها وتعداد حماماتها وفنادقها وبساتينها على امتداد الوادي الكبير، وكذلك من حيث زيادة عدد المدارس حتى أصبحت المدينة أشبه بمدينة بغداد [*الگيلاني*، ٦٣].

وبالاضافة الى تشجيعه الزراعة والإنتاج الاقتصادي، افتتح عدداً من المدارس لتدريس اللغة العربية والاحكام الشرعية، وجعل تعلم اللغة العربية كلغة رسمية تحمل الأسبان على تعلم العربية والاطلاع على الثقافة العربية والإسلامية. وعلى الرغم من أنه كان معروفاً بالشدة مع الأعداء، فإنه كان أيضاً موصوفاً بحبه للناس ورفيقاً في تعامله مع الاصدقاء، واتصافه بالعدل والسعي في سبيل ارساء الفضائل [*الگيلاني*، ٣٣ ـ ٤٠].

جاء عنه في كتب التراجم أنه كان محباً للشعر والأدب، خطيباً مفوّهاً وكاتباً قديراً، حتى أنهم استشهدوا ببعض شعره [*الگيلاني*، ٣٣ ـ ٥٢]، مع ذلك فقد قيل انه قتل *شعيا بن شعيا*، وفي أيامه أحرق الفقهاء كتب *الخليل بن عبدالملك*، وانه لذلك لم يكن محباً للعلم والمعرفة [*اولاغوثة*، ٢٩٠ / *العبادي*، ١٥٠]، (لا يبدو هذا الكلام على شيء من الصحة، فقد انتشر بظهور بعض المذاهب الإسلامية المتعارضة بعض الشيء في الاندلس، مثل المالكية، والباطنية، والاسماعيلية، والفاطمية، وهي مذاهب وردت مع شخصيات قادمة من العراق أو من شمال أفريقيا، وكانت تنتشر علناً أو سراً في شبه جزيرة آيبيريا) [*اولاغوثة*، ٢٩٠ / *العبادي*، ١٥٠].

وعلى الرغم من أنه كان يقضي معظم وقته في إخماد الفتن والعصيان والهرج والمرج والمعارضة مما كان يهدد بخروج الاندلس من يديه في كل لحظة، إلّا أنه كان يعنى عناية خاصة بالأدب والعلوم والفلسفة، وأسس العديد من الجمعيات الأدبية والعلمية والفلسفية [*الگيلاني*، ٦٣]. وبالاضافة إلى تحقيقه الكثير من الإصلاحات العملية، استطاع أن يجعل الأمن مستتباً في البلد، بحيث إن الكثير من أهل الشرق أحبوا الهجرة إلى أسبانيا، كما أن *عبد الرحمن* نفسه كان يشجع على ذلك. وعن طريق توطيد وحدة الكلمة مع بني أُمية، استطاع أن ينشر اللغة العربية والأدب العربي في البلد، وهذا الأمر نفسه كان سبباً في ظهور بلاغة خاصة في اللغة العربية الاندلسية ظهوراً واضحاً [*الگيلاني*، ٦٤].

المصادر التاريخية تشرح على وجه العموم أحوال *عبد الرحمن الداخل* السياسية والثقافية والاجتماعية والعمارية والاقتصادية بصورة مفصلة، وهو في تلك المصادر يُعد من المالكية[٣].

خليفة عبد الرحمن الداخل

خلف *هشام الأول* أباه *عبد الرحمن* وهو في الثلاثين من عمره في حكم البلاد (١٧٢ ـ ١٨٠ هـ / ٧٨٨ ـ ٧٩٦ م). وبالنظر إلى أنه، مثل أبيه، كان مستسلماً لفقهاء المذهب المالكي المتعصبين تعصباً شديداً، ظهرت الاضطرابات منذ الأيام الأولى من حكمه، مثل انتفاضة الأسبان في قرطبة، وحرب الحفرة في طليطلة، وحركة الربض في جنوب قرطبة. ولكنه، على الرغم من كل هذه المشاكل، واصل بناء المساجد حيث كان الفقه والعلوم القرآنية واللغة العربية تدرس، واستمر في اكمال بناء المسجد الجامع الذي كان أبوه قد بدأ به في قرطبة، ومنع المسيحيين من التحدث بغير اللغة العربية، ولكنه أجاز لهم الكتابة باللاتينية، وهكذا ازدادت هيمنة اللغة العربية كلغة عامة يوماً بعد يوم في أسبانيا [*الگيلاني*، ٦٦ ـ ٦٨].

بعد *هشام الأول* خلفه ابنه *الحكم الأول* (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م)، ولكنه بخلاف أبيه أغضب الفقهاء لأنه سحب أيديهم من الحل والعقد في الأمور، فكانت النتيجة أنهم أثاروا الفتنة العامة في قرطبة في ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م، ثم في ١٩٨ هـ / ٨١٤ م حدثت فتنة أخرى في طليطلة، إلّا

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

أنه لم يغير مسيرته السياسية، وبكل قوة أغرق ربض، في جنوب قرطبة، في الدماء وعلق جمعاً كبيراً من الناس على المشانق، ونفى نحو ٢٠٫٠٠٠ شخص إلى قادس ونحو ١٥٫٠٠٠ إلى الإسكندرية، إلا أن المبعدين الأخيرين نزلوا في كريت واسترجعوها من أيدي البيزنطيين [*الگيلاني*، ٦٩ ـ ٧٥].

بعده جاء *عبد الرحمن الثاني* (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ ـ ٨٥٢ م) إلى الحكم، وكانت ولادته في ١٧٦ هـ / ٧٩٢ م، وهو أول خليفة أخرج البلاط من حالة التقشف إلى حالة الرفاه، ورجع الناس في الجنوب إلى حياتهم العادية إلى حدٍّ ما، وتحسن الوضع الاقتصادي تحسناً كبيراً بحيث ان الازدهار العام وتراكم الثروات وصل حداً أفضل مما كان على أيام حكم الامبراطورية الرومانية. بديهي أن ذلك كان من نتائج أعمال أجداده التي أثمرت في أيامه. وبعد ذلك، في القرنين الرابع والخامس من الهجرة (١٠ ـ ١١ م)، تحسن الوضع أكثر وأصبحت الاندلس احدى أغنى بلدان الدنيا يومذاك [*اولاغوئة*، ٣٠٤].

القديس أولوج، أحد الروحانيين المسيحيين، كتب لنا أقدم المعلومات عن *عبد الرحمن الثاني* فيقول: «هذا الأمير ذو البدعة [يقصد: المسلم] قد جعل من مدينة قرطبة ـ التي كانت من قبل مدينة الأشراف ـ مدينة ملكية بسبب عنايته بها، فزينها بأنواع وسائل الزينة، فذاعت شهرتها في كل مكان، وتراكمت فيها الثروات الضخمة، وسعى جاهداً ومثابراً إلى جمع كل ما هو جميل ومقبول فيها.... بحيث ان شخصيته قد تجاوزت في تجليها جميع الملوك الذين سبقوه» [*اولاغوئة*، ٣٠٤].

تمتاز سنة ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م من حيث تاريخ الفكر والعقيدة في شبه جزيرة آيبيريا بأهمية خاصة. في هذه السنة لم يزدد المسيحيون المثقفون معرفة بالإسلام فحسب، بل إن الوضع السياسي والاقتصادي والنتائج المثمرة لأعمال أجداد *عبد الرحمن الثاني*، خلال السنوات الثلاثين من حكمه، أوصلت الاندلس إلى ثروات وافرة. كانت سفن عديدة تحمل منتجات هذا البلد للمبادلة مع بضائع أخرى في السند وحتى الصين، وكانت المناسبات التجارية مع بلدان الشرق الأدنى مزدهرة، وكان الأمير يشجع هذه العلاقات تشجيعاً خاصاً، فأوجد مع أقطار الشرق الأدنى علاقات فكرية ومعنوية واسعة [*اولاغوئة*، ٣٢٣].

وقام بدعوة الشعراء والأدباء والعلماء للمجيء إلى شبه جزيرة آيبيريا وكان يجزل لهم العطاء على ما تجشموه من عناء السفر. كان هو نفسه أديباً عالماً ويحب الأدباء والعلماء. كان عارفاً بالفلسفة والفقه ويحترم الفقهاء، فكان بلاطه مزدحماً دائماً بالعلماء والأدباء والشعراء والفقهاء [*الگيلاني*، ١٠٧].

كان عهده، على وجه العموم، عهد الهدوء وراحة البال، وكان يصرف الأموال الكثيرة التي تجمعت لديه على تشييد القصور والمتنزهات العامة وإيصال الماء إليها من المرتفعات والجبال، وبناء الجسور. بني في عهده الكثير من المساجد الجامعة في أسبانيا، وأضاف رواقين إلى بناء جامع قرطبة، وقد انجزهما بعده ابنه، محمد [*الگيلاني*، ١٠٦].

خلال تلك الفترة كانت بغداد لا تني ترسل علماء الرياضيات والهيئة والفنانين والراقصين المحدثين من عاصمة الخلافة إلى قرطبة، وكان لتدفق سيل الكتب إلى الاندلس أهمية كبيرة، وكان هذا الفيض الفكري والفني هو الذي فتن في النهاية أهل آيبيريا وجذبهم الى ثقافة الشرق، وخلق نوعاً من تعشق الحضارة الإسلامية حتى أطلق على تلك الفترة اسم الولادة الجديدة الأولى [*اولاغوئة*، ٣٢٣ ـ ٣٢٤].

من بين الذين وردوا من العراق على الاندلس واستقبلهم *عبد الرحمن الثاني* استقبالاً حسناً، كان *زرياب*، الموسيقي النابغة العظيم القدر الذي جمع مختلف فنون

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

الموسيقى وتلميذ *اسحق الموصلي* (١٥٠ ـ ٢٣٦ هـ / ٧٦٧ ـ ٨٥٠ م)، هو الذي كان له تأثير عميق وواسع في ظهور الفن وانتشاره، وعلى الأخص فن الموسيقى في اسبانيا، وعن هذا الطريق كان له تأثير في ظهور وزن الشعر الاندلسي وأدبه، وخاصة الزجل أو الموشحات الاندلسية[٤].

يعتبر *عبدالرحمن الثاني* أول أمير من الخلفاء الامويين في الاندلس أسرف في الصرف على بناء القصور الكثيرة، مثل: البهو، والكامل، والمنيف، حتى أن شعراء الاندلس اندفعوا يشيدون بجلال تلك القصور وعظمتها في شعرهم [*الشكعة*، ١٩٨٣، ٢٨ ـ ٢٩].

الظاهر أن تعليم أهل اسبانيا اللغة العربية في أيام *عبد الرحمن الثاني* ازداد شدة وعمقاً، لأنه كان قد وطد علائقه مع الشرق. يومذاك كان أهل شبه الجزيرة من مسيحيين ومسلمين يطلقون على أنفسهم الاسماء العربية، حتى أن الشخصية من ذوي القدرة كان في سبيل إعلاء شأن أسرته ومقامها لا يتورع حتى عن تزييف الوثائق عن شجرة العائلة بايصال أصله ونسبه بأحدى القبائل العربية المشهورة في عربستان [*اولاغوثة*، ٢٩٧ / *الگيلاني*، ١١٠ ـ ١٢١].

قضى *عبد الرحمن الثاني* على اضطرابات المسيحيين واليهود في طليطلة، وعلى أثر مساعيه أصبح مقام الحضارة الإسلامية ومكانتها مما لا يقاوم، مع ذلك فقد أخذ عليه أنه كان وقع تحت نفوذ امرأة ومولى وفقيه ومغن، وأن أموره كلها كانت في أيديهم، لذلك كانت تصدر منه أفعال غير مقبولة، مثل إبعاد *يحيى بن غزّال* في سفارة لدى بلاط ملك نورماندي والدانمارك، وقد ذكروا أن سبب ابعاده في ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م هو أن *زرياب*، مغني الخليفة، قد ذمه، وأنه قد شنق شيخاً من الباطنية إرضاءاً لفقيه بلاطه، وقتل القسيس *برفكتوس* (٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م) و *اسحق* الراهب، والآنسة *لورا*، والراهبة *ماري* (٢٣٧ هـ / ٨٥١ م) [*العبادي*، ١٥٠ / *الگيلاني*، ١٠٦، ١٧٨، ١٧٩].

القاضي صاعد يعتقد أن عهد *عبد الرحمن الداخل* حتى نهاية *عبد الرحمن الثاني*، من حيث الاستقرار والامن والهدوء الاجتماعي وتوطيد الوضع السياسي، ضروري معرفته كمقدمة لكل بحث علمي وتحقيق فلسفي، وهو يرى أن هذه الدورة التي دامت ١٤٥ سنة قد مهدت للازدهار العلمي النسبي في المئة سنة التالية [*القاضي صاعد*، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩].

خلفاء عبد الرحمن الثاني حتى نهاية عهد عبد الرحمن الناصر

بعد *عبد الرحمن الثاني* خلفه ابنه *محمد* (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ ـ ٨٨٦ م) على كرسي الخلافة في الاندلس. *القاضي صاعد* يعتبر فترة حكمه بداية مرحلة من الازدهار النسبي وقرن العلوم في تلك البلاد، وذلك لأن عدداً من الناس اتجهوا لدراسة علم الحساب، والنجوم، وأحكام النجوم، والطب، والمنطق، فمهدوا الطريق للمرحلة العظيمة التالية (*القاضي صاعد*، ٢٣٨ ـ ٢٤٢).

لكي يحل المشكلات القائمة في الطريق، استمد الامير محمد العون من الفقهاء، وقام بقمع العصاة المسيحيين في قرطبة، وواصل الحرب مع *ابن حفصون* وغيره ممن أثاروا الفتن [*العبادي*، ١٥٠ / *الگيلاني*، ١٠٦، ١٧٨ ـ ١٧٩].

وأعدم أسقف مدينة قرطبة (٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م) واستمد العون من رؤساء القبائل لإخماد حركات عمر *ابن حفصون* و*عبد الرحمن بن مروان الجلّقي*، وقبيلة بني قسي والقبائل المستعربة الأخرى ممن أثاروا الاضطرابات [*العبادي*، ١٥٠ / *الگيلاني*، ١٠٦، ١٧٨ و ١٧٩].

في تلك الفترة عاد *بقى بن مخلّد* (٢٠١ ـ ٢٧٦ هـ / ٨١٦ ـ ٨٨٩ م) من رحلته الى الشرق حيث استوعب المذهب الحنبلي وأدخله الى الاندلس، واخذ يدرّس أصوله

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

وقواعده في جامع قرطبة من كتاب *أبي بكر بن أبي شيبة*. فاعترض فقهاء المالكية على ذلك، وأثاروا أتباعهم العوام ضدهم، ولكن الامير *محمداً*، بعد أن حقق في الكتاب، أباح تدريسه، وأمر أمين مكتبة دار الخلافة باستنساخ نسخة منه للمكتبة الملكية، وأجاز *لابن مخلّد* أن يقوم بتدريس الكتاب [*الگيلاني*، ١٨٠].

واستغل رؤساء القبائل الذين استعان بهم الامير *محمد* لإخماد الحركات المناوئة، فراحوا ينتهزون الفرص، حيثما كانوا للاستزادة من القوة والثروة تدريجياً إلا أنهم ثاروا في وجه ابنه *المنذر* (٢٧٣ ـ ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ ـ ٨٨٨ م) وهو في الرابعة والأربعين. وفي السنة نفسها قتل وزير ابيه، *هشام بن عبد العزيز* بتهمة تعاونه مع اولئك. وفي السنة التالية، فيما كان يحاصر *ابن حفصون*، دس السم لأخيه *عبدالله* وجلس بمكانه [*العبادي*، ١٥٠ / *الگيلاني*، ١٨١ ـ ١٨٢].

الامير *عبدالله* (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ ـ ٩١٢ م) خلف أخاه، وهو في الخامسة والأربعين. ومنذ البداية واجه معارضة رؤساء القبائل العربية المتفاقمة، حتى أن *ابن حفصون* ارتد عن الاسلام واعتنق المسيحية (٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م).

في عهد *الامير عبدالله*، ابتكر *مقدم بن معافر الغريري*، لوناً من الشعر باسم الموشحات الاندلسية.

بعد الامير *عبدالله* جاء *عبدالرحمن الثالث* ابن الامير *محمد* [*ابن عذاري*، ج ٢، ٢٤٧ / *الگيلاني*، ١٨٣ ـ ١٨٨].

عبدالرحمن الناصر

عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ / ٩١٢ ـ ٩٦١ م) كان اول خليفة أموي في الاندلس أطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين، وأخضع القبائل العربية باقتدار، وقتل *عمر بن حفصون*، وأرعب الدول المسيحية، وجعل لنفسه حرساً من الصقالبة، وعين *حسداي بن شبروط* طبيباً خاصاً له، وعهد اليه أيضاً بالإشراف على بيت المال الذي كانت حساباته مشوشة، وتبادل السفراء مع الدول الاوروبية. كان يعشق العمارة أكثر من أي شيء آخر، فبنى مدينة جديدة باسم الزهراء في شمال غرب قرطبة على سفح جبل العروس خلال بضع سنوات (٣٢٤ ـ ٣٥٠ هـ / ٩٣٦ ـ ٩٦١ م)، فكانت مدينة لا تدانيها مدينة أخرى جلالاً وجمالاً. كانت الزهراء تحتوي على الحمامات والمتنزهات والبساتين، وحدائق الحيوان. وكان له قصر خاص قائم على ٤٣٢٨ عموداً جاء ببعضها من أطلال قرطاجنة، وكان فيه ٤٠٠ غرفة وأيوان، ونصب في وسط قاعته الكبيرة جوهرة كبيرة أهداها له امبراطور بيزنطة، *ليو* [*ابن عذاري*، ج ٢، ٢٤٧ / *ابن الخطيب*، ١٩٧٤ م، ج ٢، ٣٩ / *المقري*، ج ٢، ٦٥ / *الشكعة*، ٣٠].

اضافة الى ذلك كانت له قصور أخرى، مثل قصر الزهراء، وقصر أفخم منه باسم دار الروضة، بناها له مهندسون مشهورون من بغداد والقسطنطينية [*المقري*، ج ٢، ١١٢].

ولتزيين مدينة الزهراء. بالإضافة إلى الأعمدة المذكورة، جلب له من دولة الروم حوض مرصع بالذهب يخلب لب من يراه، كما أن *أبا عمرو أحمد بن سعيد بن حزم*، *أبا محمد علي بن حزم* ـ وكان من أعاظم شخصيات الاندلس وكبرائهم، كما يقول *القاضي صاعد* ـ أهداه حوضاً آخر جاء به من الشام، وقد نصب عليه ١٢ تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالجواهر والأحجار الكريمة [*اولاغوثة*، ٣٨٧].

في بعض اللوحات المرمرية التي زينت قصر الزهراء كانت تزيينات نباتية وبعض طيور الزينة شبّهوها، من حيث ظرافتها وتناسبها، بصناعة الميناء الإيرانية لذلك العصر [*اولاغوثة*، ٣٨٧].

الناصر استفاد من الفنون التزيينية والعمارية الداخلية في تشييد القصور والعمارات والحدائق

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

والبساتين والمراكز الواسعة لحفظ الحيوانات والأقفاص الكبيرة للطيور، والأحواض الواسعة لحفظ الأسماك، والتي يمكن أن يقال عنها بلغة اليوم انها حدائق الحيوانات، كما أن إيجاد المساحات الخضر حول مدينة الزهراء كان أخّاذاً حقاً، لأنها غطّت كل سفوح جبل العروس. الأشجار التي كانت أشجار اللوز والزيتون التي كانت في فصل التفتح يتبدل الجبل الى عروس في رداء أبيض وذات عطر أخّاذ. كان مولعاً بأنواع النافورات المائية الجميلة، فأنشأ نماذج منها في جوامع قرطبة وإشبيلية وغيرهما. كما أن ترميم جسر النهر الكبير يعتبر من إصلاحاته [*المقري*، ج ٢، ١١٢ / *الگيلاني*، ٢٠٢ / *الشكعة*، ٣١].

كانت نفوس قرطبة يومذاك تقرب من نصف مليون، هذه المدينة ذات النصف مليون كان فيها بالاضافة الى القصور الفخمة، ٣٠٠٠ مسجد، و١١٣٠٠٠ باب منزل، و٣٠٠ بيت للدعارة، و ٢٨ ناحية، وما كانت مدينة في العالم ما عدا بغداد تضاهيها وسعة وعظمة وجلالاً [*الگيلاني*، ١٩١].

في السنة التي أطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين [أي في ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م] أصدر أمره بانشاء دار ضرب المسكوكات، وفي السنة نفسها أيضاً ظهرت باسمه مسكوكات الدينار بوزن مثقال من الذهب والدرهم من الفضة [*الگيلاني*، ٢٠٢].

كان *الناصر* يعز أهل العلم والادب والفن، وبتشجيعهم عمل على ازدهار الآداب والعلوم والفنون، وكان يدفع بسخاء لمترجمي المؤلفات اليونانية واللاتينية، وأسس الى جنب جامع قرطبة جامعة، وبذلك رفع قرطبة الى قمة المعرفة المعاصرة بحيث أنها أخذت تنافس بغداد والقسطنطينية، وأصبحت هذه المدن الثلاث مراكز الثقافة الجامعية العالمية في ذلك الزمان [*الگيلاني*، ١٩٠ ـ ١٩١].

كانت تلك الفترة بحسب رأي *القاضي صاعد*، تعتبر نقطة الأوج في الازدهار المئوي للمعرفة والعلم ازدهاراً نسبياً، ويوصل أواخرها بأوائل الفترة التالية، أي من حكمه حتى عصر *القاضي صاعد* نفسه، حيث بلغ تقدم العلوم في الاندلس قمته [*القاضي صاعد*، ٢٣٨ ـ ٢٤٣]، وهي نظرة صائبة، وذلك لأن قرطبة لم تكن هي وحدها التي تتمتع في تلك الفترة بالازدهار العماري والعلمي والتقدم الثقافي، بل ان المدن في أرجاء الاندلس كانت تتمتع بالامتيازات نفسها، مثل اشبيلية وغرناطة وطليطلة وبلنسية والمريّة وبطليوس وحتى الجزائر القريبة من الساحل الاندلسي، مثل ميورقة ومنورقة وغيرهما وكان لها دور في مسائل البحث والتحقيق والإنتاج الثقافي [*الشكعة*، ٢٤ ـ ٢٦].

بالطبع لم يكن دور الدولة في هذا التقدم هو وحده اللافت للنظر، بل كان للقطاع الخاص دوره أيضاً في نعمة إثراء البلد، بالإضافة إلى دوره في التقدم الثقافي والعماري، فقد كان بناء كل قصر من قصور الأثرياء يكلف في ذلك الزمان نحو مئة ألف دينار (كل دينار يعادل ٤/٥ غم من الذهب المسكوك)، وكل قصر كان يقلد قصور الخلافة في بناء المكتبات وعقد الجمعيات العلمية والأدبية والتحقيقاتية [*الشكعة*، ٣٦].

كان هذا الخليفة يعنى أيضاً بالزراعة والصناعة والتجارة والجيش. ولهذا ازدهر الاقتصاد والإثراء العام في مملكته حتى قيل أن المبلغ السنوي الذي كان يدخل بيت المال بلغ ٢٤٥/٠٠٠ جنيه، من دون احتساب خمس الغنائم [*المقري*، ج ١، ١٣٦ / *الگيلاني*، ١٩٠ و ١٩١]. رصيد خزانة *عبدالرحمن* سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥١ م بلغ ٢٠/٠٠٠/٠٠٠ جنيه، لذلك يمكن تصديق ما قاله أحد السياح: «*عبدالرحمن الناصر*، و*ناصر الدولة الحمداني* حاكم الجزيرة في بين النهرين، كانا من أغنى دول العالم المعاصرة لهما» [*الگيلاني*، ١٩٠ ـ ١٩١ / *الشكعة*، ٢٣].

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

من البديهي أن النجاح في تحقيق مناهج التنمية وضمان الرفاه الاجتماعي في كل بلد يعتمد على الرصيد الموجود في خزينة بيت المال وكيفية صرفه ومجالاته، والظاهر أن نجاح *عبد الرحمن الناصر* في الزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم يعود الى هذا الأمر.

كان وضع بيت المال قبله يثير الأسف، ولكن في أيامه تحسن وضعه وامتلأ مالاً بحيث كان دخله السنوي ٦/٢٤٥/٠٠٠ جنيه، يخصص ثلثه للأمور الجارية، وثلثه للادخار الاحتياطي، وثلثه للعمار وبناء المدينة [*الگيلاني*، ١٩١ / *الشكعة*، ٢٣].

قوات *عبدالرحمن الناصر* كانت أيضا قوة عظيمة، خاصة قوته البحرية فقد كانت ضخمة تجوب البحر الأبيض المتوسط ويستخدمها في حروبه مع الفاطميين، كما نجح بها في الاستيلاء على سبتة، مفتاح موريتانيا [*الگيلاني*، ١٩١].

وهذه القوات العسكرية القوية نفسها التي كانت تتمسك بأفضل انضباط، كانت أقوى الجيوش في العالم، وقهرت المسيحيين الساكنين في الشمال، وهذا هو نفسه اوجد رغبة شديدة لدى الحكام الأقوياء في الانضمام اليه، بحيث ان امبراطور القسطنطينية وملوك ألمانيا وايطاليا وفرنسا ارسلوا سفراءهم حاملين هدايا نفيسة لبلاطه [*الگيلاني*، ١٩١ ـ ١٩٢].

في الواقع كانت شخصية *عبد الرحمن الثالث* العظيمة ذات موقع ممتاز في ثقافة شبه الجزيرة الى درجة أن أحداً من الخلفاء الامويين في أسبانيا لم يبلغ مبلغه. إن ما قام به بمفرده كان أشبه بمعجزة. كان قد أدرك أن نيل رؤساء القبائل وبعض الامراء القوة تدريجياً يضعف الامبراطورية الواقعة في منزلق الهرج والمرج والحروب الداخلية والغائصة في الاضطرابات والتحزبات السياسية. ويبدو أنه كان يرى القوة مقسمة بين الكثير من أمراء مختلف العناصر الذين كانوا معرضين دائماً لغارات المسيحيين الشماليين وهجماتهم، وكان يتكهن أن تلك الارض سوف تبتلعها قوات ليون أو الأفارقة. لذلك شمر عن ساعد الجد وأنقذ أسبانيا الإسلامية من كل الأخطار المحدقة بها وكذلك من قوات ليون والأفارقة، كما نجّاها من خطر الدمار الداخلي، وسد الطريق على المهاجمين من الخارج، ونفخ في ذلك البلد روحاً جديدة وجعله أقوى من أي وقت مضى، وبالتدبير السليم أوصل الناس الى السعادة، وجعلهم مكرمين محترمين في عيون الملل الأخرى [*الگيلاني*، ١٨٩ و ١٩٠].

في الواقع *عبد الرحمن الناصر* جعل من مسلمي أسبانيا أمة، وخلق من القوميتين العربية والأسبانية شعباً أندلسياً متضاماً واحداً، شعباً ما أسرع ما تقدم تقدماً لا يصدقه العقل، لأنه ارتفع إلى علو ما زالت آثاره بادية للعيان حتى اليوم. يومئذ كان هذا الشعب على مستوىً من الثقافة أثارت حسد أوروبا، كما يقول *نيكلسون*، ووصل الى درجة لم تبلغها دولة من دول الشرق الاسلامي. ولكن الذي يؤسف له أنه بموته وانهيار الخلافة الأموية بدأ عصر تدهور الثقافة والحضارة الإسلامية [*الگيلاني*، ١٩٢ ـ ١٩٣].

من عصر الحكم الثاني حتى سقوط الخلافة الأموية

بعد *عبدالرحمن الناصر* خلفه أكبر أبنائه وولي عهده *الحكم*، المعروف *بالحكم الثاني* (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ / ٩٦١ ـ ٩٧٧م)، وكان أبوه قد بذل جهداً كبيراً في تربيته، مستعيناً بعلماء تلك الأيام وأدبائها، خاصة *أبي علي القالي* الذي طلب مجيئه من بغداد لهذا الغرض [*الگيلاني*، ٢٢١]. بعد تسنم *الحكم الثاني* الخلافة أعطى الوزارة *لحداي بن شبروط*، وقيادة الجيش *لمحمد بن أبي عامر*، وحمل الدول المسيحية المجاورة على طلب الصلح معه، ووضع حداً لنفوذ دولة الفاطميين في شمال افريقيا (٣٦١ هـ / ٩٧٢

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

م)، وأكمل بناء مدينة الزهراء، ووسع بناية المسجد الجامع في قرطبة، وزينه بالقاشاني الذي أهداه له الامبراطور قسطنطين، وأرسل ـ كما يقول *القاضي صاعد* ـ المبعوثين الى نقاط مختلفة من الشرق الأدنى، كالاسكندرية والقاهرة وبغداد ودمشق، طالباً منهم جمع كتب العلوم القديمة والجديدة واستنساخها [*القاضي صاعد*، ٢٤١]، فكان أن اكتظت مكتبته بنحو ٤٠٫٠٠٠ مجلد، وجمع فيها المهرة من الناسخين والصحافين. يقال انهم انما استطاعوا أن يستنسخوا فقط فهارس الكتب الموجودة فبلغت ٤٤ مجلداً، في كل جلد بين ٢٠ و ٥٠ ورقة [*الگيلاني*، ٢٢٥ و ٢٢٦].

يقول *القاضي صاعد* انه منذ ولاية عهده، ومن ثم في أيام حكمه كان يتولى هذا الأمر برغبة العاشق الولهان، بحيث انه استطاع أن يجمع في تلك المدة في خزائن كتبه بمقدار ما استطاع أن يجمعه جميع الخلفاء العباسيين على امتداد حكمهم [*القاضي صاعد*. ٢٤٢].

يعتقد *القاضي صاعد* أن عصر *الحكم الثاني* شهد قمة تاريخ العلم في شبه جزيرة آيبيريا [*القاضي صاعد*، ٢٤٢].

من المعروف أنه ارسل إلى *أبي الفرج الاصفهاني* ألفي دينار مقابل أن يبعث له بنسخة من كتابه الأغاني قبل نشره في العراق. وفعل مثل ذلك مع *أبي بكر الأبهري المالكي* عن كتابه شرح مختصر ابن عبد الحكم. في عهده كان المحققون وطلاب العلم من ارجاء أوروبا وافريقيا وآسيا ينحدرون نحو جامعة قرطبة بحيث ان عدد طلبتها كان دائماً يبلغ بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ طالب. [*ابن بشكوال*، ١٩٥٥، ج ١، ٣٥٤ / *الگيلاني*، ٢٢٧ و ٢٢٨].

في عهد هذا الامير، المثقف، العالم، المحب للكتاب والقارئ له، اتسعت جميع فروع العلم والمعارف في أسبانيا، بما أحدثه من المدارس الجديدة اضافة إلى المدارس التي كانت موجودة من قبل، بحيث ان جميع الأهالي تمتعوا بنعمة القراءة والكتابة. مع ذلك فإنه لم يكن راضياً بما فعل وكان يطلب مزيداً من التوسع في العلم والمعرفة. لذلك، ولكي ينشر العلم والثقافة بين الطبقات الفقيرة، وخاصة في العاصمة، أنشأ مدارس كان هو نفسه يدفع مرتّبات معلميها، كما كان الطلاب يدرسون مجاناً أو يحصلون على عون دراسي [*الگيلاني*، ٢٢٩].

كان *الحكم الثاني* يلقب بالمستنصر*بالله*، وكان يقرض الشعر الجيد، نجد نماذج منه في المصادر [*الگيلاني*، ٢٣١، ٢٣٢].

في عهده وجّه الجلالقة عين الطمع إلى بعض أجزاء البلد، ولكنه أسرع بمحاربتهم وهزمهم هزيمة فاضحة، واستولى على اجزاء من تلك النواحي وغنم منهم الكثير من السلاح والمال [*الگيلاني*، ٢٣٠].

وفي سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م، شن الحرب على المجوسيين البربر الذين خرجوا عليه، ونشر الأمان على طول الساحل، وحمل رؤساء قبائل زناتة ومغراوة ومكناسة ضمن حكومته على أن يذكروا اسمه في الخطب في شمال افريقيا، فخلق بهذا المشاكل للشيعة وللدولة الفاطمية، هذه الإجراءات مكنته من تقوية الاتحاد بين مختلف الأقوام في الأندلس، وقد استفاد من ذلك على خير وجه طوال حياته [*الگيلاني*، ٢٣٠].

وقبل موته اخذ البيعة لابنه وولي عهده *هشام الثاني* (حكم من ٣٦٥ ـ ٤٠٠ هـ / ٩٧٦ ـ ١٠٠٩ م)، إلّا أن شؤون الدولة لم تسر في الطريق الذي رسمه لها، ولم يستمر الاتحاد لأن هشاماً كان صبياً في الثانية عشرة من عمره عندما مات أبوه، فانقسم الناس جماعات وفرقاً مختلفة، لكل منها نظرتها ونهجها الخاص بها [*ابن الخطيب*، ١٩٧٤ م، ج ٢، ٤٤ ـ ٤٧]. العملية النهائية للمواقف السياسية أدت الى أن يقف الجناح العسكري وجناح الوزيرين وجهاً لوجه. الجناح العسكري كان

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

بقيادة القواد وكبار العسكريين الصقالبة، تحت إمرة *فائق وجؤذر* اللذين كانا يريدان تنحية هشام عن الخلافة لصغر سنه، وتنصيب عمه *المغيرة بن عبد الرحمن الناصر* بمكانه. إلّا أن الجناح الآخر بزعامة *جعفر بن عثمان المصحفي ومحمد بن أبي عامر*، رأى مصلحته في الدفاع عن الوضع القائم. وأخيراً باغتيال *المغيرة* أصبح هذا الجناح هو المسيطر، وهيأ جو الخلافة لهشام، أو في الحقيقة جو الحكومة لأفراده [*ابن الخطيب*، ١٩٧٤ م، ج ٢، ٤٤ ـ ٤٧].

كان من البديهي أن يعهد الخليفة منذ البداية لصغر سنه وعدم خبرته، بالأمور إلى أُمّه التي كانت وصيفة بشكنسية من أصل نافاري تسمى صبح (Aurora). كان مالكها *الحكم* يسميها *جعفراً*. وكانت حسنة الغناء لقيت موقعاً ممتازاً لدى الخليفة. وبعد أن ولدت له هشاماً ازداد مقامها رفعة، لأنها أصبحت ام ولد أي والدة ابن الخليفة، واستطاعت بذكائها الخارق للعادة وحب الخليفة لها، أن تحصل بالتدريج على نفوذ لافت للنظر في قصر الخلافة. ثم ظهرت عن طريق صبح، شخصية سياسية أخرى بسطت هيمنتها العقابية بسرعة على الخليفة الصغير وأمه كليهما وأمسكت بهما في قبضتها [*الگيلاني*، ٢٩٢، ٢٩٥، ٢٩٦].

تلك الشخصية كانت *محمد بن أبي عامر* الذي اطلق على نفسه لقب *المنصور*، ويمكن أن يوصف *بسمارك* الاندلس [*الگيلاني*، ٢٩٣، دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣، ٤٣].

بناء على ذلك، في تاريخ الاندلس، أصبحت الخلافة الاموية خلال فترة (٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ ـ ١٠٠٨ م) مجرد اسم، بينما في الواقع انتقل الحكم الى أسرة أخرى هي أسرة آل عامر التي استبدت بالحكم، وحالت دون التفرق وأخمدت الاضطرابات. اننا نرى التجسيد الكامل للحكومة العامرية في *المنصور بن أبي عامر* وأولاده *مظفر وعبد الرحمن*. بالطبع، خلال تلك الفترة، كان الخليفة القانوني هو هشام الملقب بالمؤيد بالله، والذي نجد خير وصف له فيما قاله *ابن الخطيب* [*ابن الخطيب*، ١٩٧٤م، ٥٨٢ / *الگيلاني*، ٢٩٨].

يقول *ابن الخطيب*: «كان هشام وهو تحت تكفل ولي أمره الحاجب *المنصور* بصورة لا يمكن معها ان ينسب اليه أي تدبير لانه لم تكن له يد في أي عمل كبيراً كان أم صغيراً، ولانه كان في شخصيته وجذور مزاجه ضعيفاً، ذليلاً ووضيعاً. كان منهمكاً دائماً في السياحة والتلهي واللعب مع الاطفال والبنات، وفي كبره أيضاً كان يفضل صحبة النساء ومجالستهن والتحدث مع الوصيفات. كان يميل الى جمع الآثار القديمة وكم من قطعة خشبية ضمتها خزينته على أنها من سفينة نوح عليه السلام وكم من القرون المنسوبة الى كبش اسحق ضمتها خزانته! وما أكثر الحوافر التي قيل أنها حوافر حمار *عزير* وأخفاف ناقة *صالح* التي جمعها، دون أن يشك في تعددها وكثرتها. كذلك جمع السجادات المنسوبة الى العبّاد، والأواني التي كان يتوضأ فيها الزهاد. كان يصرف للحصول على هذه الاشياء أضعاف وزنها من المال، وكان يشتريها من النصّابين الذين كانوا يجمعونها من المسالخ ومن هنا وهناك ومن نصابين آخرين ويعرضونها عليه». [*ابن الخطيب*، ١٩٧٤، ٥٨٢].

لذلك فان هشاماً لم يكن ـ عند المؤرخين ـ تلك الشخصية التي تستحق الدراسة والتحقيق، فوجه هؤلاء أنظارهم الى الذي كان وكيله ووصيه، أي *المنصور بن أبي عامر* (٣٢٨ ـ ٣٩٢ هـ / ٩٤٠ ـ ١٠٠٢ م) الذي كان أصلاً من قبيلة يمانية ومعافري من القحطانيين. ان *القاضي صاعداً* اذ يبين سيطرته على الحكم في الاندلس ومنعطف تاريخ العلوم في ذلك البلد، إنما يبينه بانحدار شديد أقرب الى السقوط العمودي. يقول عن نسبه انه: *ابو عامر محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أبي عامر محمد ابن الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن عامر المعافري القحطاني.*

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

[*القاضي صاعد*، ٢٤١].

جده *عبد الملك* كان قد صحب *طارق بن زياد* الى الاندلس، وفي بعض العمليات العسكرية في الجزيرة الخضراء أظهر بعض البطولات فمنح قطعة ارض ثمينة في مدينة توروش في وادي آره في الشمال الشرقي للجزيرة الخضراء. وبعده انتظم ابناؤه في طبقة الاشراف الرفيعة في الاندلس، وبعضهم أصبحوا من ندماء الخليفة في قرطبة، وظهر منهم الولاة والقضاة والعلماء [*ابن عذارى*، ج ٢، ٢٥٧].

أبوه ـ *عبدالله* ـ كان أيضاً من كبار علماء الدين، وقد توفي في مدينة طرابلس في طريق عودته من الحج. امه *بريهة* بنت يحيى التميمي، كانت من أسرة عربية معروفة في قرطبة ومشهورة ببني برطال [*ابن عذارى*، ج ٢، ٢٥٧].

حظي *ابن أبي عامر* بتربية جيدة بحيث انه منذ شبابه كان عالي الهمة ذا تطلعات رفيعة وآمال قوية بالمستقبل، وهناك في هذا الشأن حكايات كثيرة في المصادر [*ابن الخطيب*، ١٩٥٦ م، ٧٨ / *الگيلاني*، ٣٠٤ و ٣٠٥].

اكمل *ابن أبي عامر* دراسته في جامعة قرطبة، ومن ثم ـ مثل أعمامه وأخواله ـ اتبع مسيرة قضاة تلك الأيام. درس اللغة والأدب على *أبي علي القالي البغدادي* و*أبي بكر ابن قوطية*، والحديث على *أبي بكر بن معاوية* القرشي وغيرهم. ثم افتتح بالقرب من قصر الخليفة مكتباً للوكالة وانشغل بتحرير عرائض الشكايات وأمثال ذلك، وبالنظر لدرايته وذكائه سرعان ما أحبه الناس وذاع صيته حتى وصل الى أسماع صبح زوجة الحكم الثاني وأم هشام، فاستخدمته ليشرف على أملاكه الخاصة، واذ أظهر في عمله هذا الكفاءة الممتازة أثارت إعجاب صبح فتعلقت به [*الگيلاني*، ٢٩٥ و ٢٩٦]، ثم بتقديم الهدايا النفيسة لها استولى على قلبها، فتشفعت له لدى الخليفة، *الحكم المستنصر*، ليرفع مقامه. فعينه ابتداءاً أميناً على دار ضرب السكة، ثم قاضياً في محافظات ريّة، ومن ثم رفع مقامه وجعله ناظراً على أموال الزكاة والمواريث في اشبيلية، وفي الوقت نفسه رئيساً لشرطتها، والأهم من ذلك أنه جعله وكيلاً عن ولده هشام ولي العهد، وبعد ذلك أوكل إليه مهام وزارته [*ابن عذارى*، ج ٢، ٢٨٤ / *الگيلاني*، ٢٩٦ و ٢٩٧].

ابن أبي عامر الذي بقي في مقام الوزارة على أيام هشام كان يدرك جيداً أن أمامه طريقاً صعباً مليئاً بالأعداء في داخل المملكة وخارجها، فاستطاع بذكائه أن يوقع الخلاف بين اعدائه وجعلهم يتناحرون فيما بينهم، وحطم كل واحد منهم بيد الآخر، فهو في سبيل بلوغ أهدافه السياسية، لم يلق بالاً لا للضمير ولا للأخلاق [*ابن عذارى*، ج ٢، ٢٨٤ / *الگيلاني*، ٢٩٦ و ٢٩٧ / *الشكعة*، ٣٦].

وبعد اغتيال *المغيرة بن عبد الرحمن* حرض الحاجب *جعفر بن عثمان* المصحفي على القواد الصقالبة، وبذلك أضعف الطرفين واستعاض عن القوات الصقلية كحرس خاص، بمملوكين غيرهم كانوا يطيعونه طاعة عمياء في حماية القصر، ومن ثم عرفوا باسم الفتيان أو مماليك العامري، وخلال ذلك اختار *أسماء* بنت *غالب بن عبد الرحمن* ـ قائد الجيش وأمير الثغور الذي كان ذا نفوذ كبير في الدولة ـ زوجة له، وبذلك سيطر على القوات التي تحت إمرته، وسرعان ما وجه تهماً إلى المصحفي وعزله وسجنه. المصحفي الذي كان شاعراً نظم القصائد وأرسلها إلى المنصور لجلب انتباهه، إلّا أن هذا فضلاً عن كونها لم تؤثر فيه، فانه أحضره في أحد المواكب وجعله يسير في الموكب مكبلاً بسلاسل الحديد لتحقيره، ثم رماه في سجن المطبق في مدينة الزهراء حتى مات، أو أمر بخنقه كما يقولون [*ابن عذارى*، ج ٢، ٢٨٦ / *ابن الخطيب*، ١٩٥٦، ٧٧].

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

ثم لكي يقضي على *غالب بن عبد الرحمن* الذي كان خطراً محتملاً، استدعى *المنصور جعفر بن علي بن حمدون* المعروف بابن الأندلسي، من المغرب وحرضه على *غالب*. كان *جعفر* من أصل اندلسي، وكان أبوه وجده قد التحقا *بالفاطميين* في المغرب. ولما انتقل الفاطميون إلى مصر، عهدوا بحكومة المغرب إلى قائدهم الصنهاجي *يوسف بن بلكين بن زيري*، وكان جعفر يطمع في ذلك المنصب، فغضب وهرب إلى الاندلس، وهناك لجأ هو وأخوه يحيى إلى بلاط الخليفة *الحكم المستنصر*، فأكرم الخليفة مقدمهما، وبعد إخماد حركة *حسن بن جنون* في المغرب، عينهما لحكومة المغرب [*ابن الخطيب*، ١٩٥٦ م، ٧٦ و ٧٧].

ولكي يصبغ *المنصور* حكومته المطلقة بالصبغة القانونية، ولكي يقوي مركزه بين الناس، أخذ يغزو البلدان المسيحية في الشمال بشكل مستمر، كل سنة غزوتين (الصوائف) في الصيف و(الشواتي) في الشتاء، بلغ مجموعها ٥٧ غزوة خلال ٢٥ سنة، حضرها جميعاً على الرغم من اصابته بالنقرس. وكان من بين المناطق التي غزاها: قشتالة، ليون، نبرة، قطالونيا، برشلونة، وفي منطقة الجلّيقية هاجم سنتياغو وبلغ حدوداً لم يبلغها الحكام السابقون من قبل [*ابن عذارى*، ج ٢، ٢٨٨].

عند عودته من حملة سنتياغو حمل معه الكثير من الأسرى والغنائم التي كان منها نواقيس كنيسة المدينة وأبوابها. وقد استخدم الأبواب لبناء سقف جانب من الملحق الذي أضافه إلى جامع قرطبة، وحوّل الأجراس إلى شمعدانات للمسجد. كان عدد الأسرى والأسيرات وكميات الأموال التي جلبها من هذه الغزوة من الكثرة بجيث أنّ الناس أطلقوا عليه لقب الجلّاب، على الرغم من أن المعنى الأصلي لهذا اللقب كان يطلق على بائع الحيوانات من ذوات الأربع، أو النخّاس، إلّا أنهم كانوا يطلقونها عليه من باب المدح [*ابن عذارى*، ج ٣، ١٣].

في المغرب سار *المنصور* وفق السياسة نفسها التي كان *عبدالرحمن الناصر والحكم المستنصر* قد سارا عليها، وهي السياسة القائمة على ضرورة حماية السواحل المغربية في افريقيا والتي كانت تحت سيطرة الاندلس. بصفتها الخط الدفاعي جنوب الاندلس عند الضرورة ضد خطر الشيعة ونهضة الخوارج. وعلى الرغم من انه كان مسيطراً على سجلماسة في الجنوب حتى ولايات تلمسان وتاهرت في الشرق، خلال سنوات ٣٧٠ ـ ٣٨١ هـ / ٩٨٠ ـ ٩٩١ م [*مفاخر البربر*، بلا تاريخ، ١٦، ٢٤، ٣١]، إلا أن هذه المناطق كانت تثور دائماً على النفوذ الأموي، لذلك استخدم المنصور الجزيرة الخضراء في جنوب الاندلس بمثابة قاعدة عسكرية، ومن هذه القاعدة استطاع أن يخمد انتفاضة أمير دولة بني زيري في المغرب الأدنى والأوسط، *بلكين بن زيري الصنهاجي* في سبتة (٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م)، وحركة الأمير الإدريسي في المغرب الأقصى، *وحسن بن جنون* في ٣٧٥ هـ / ٩٨٥م[٥].

أخطر الانتفاضات على *المنصور* في سواحل افريقيا الغربية، اندلعت بقيادة *زيري بن عطية المغراوي الزناتي* في ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م. *زيري* وقبيلته بنو مغراوة من أفخاذ زناتة استفادوا من إخماد حركة *حسن بن جنون العلوي الإدريسي*، وكذلك أتباعه من قبيلة بني يفران زناتة، ونال رضا *المنصور* الذي عهد إليه بحكم ولاية المغرب والرئاسة على جميع قبائل زناتة. [*السلاوي*، ١٩١٠ ـ ١٩١٢ م، ج ١، ٢١١ / مفاخر البربر، ٢].

في البداية أظهر هذا الحاكم المغربي رغبته في الارتباط والتعلق بالدولة الأموية في أسبانيا، وقدم هدايا نفيسة *للمنصور* مثل طيور الزينة والمغردة والحيوانات المفترسة كالأسود والفهود في أقفاص حديد، كما أنه كان قد أرسل إلى *المنصور* زرافة حية، ولكنها ماتت في الطريق فحشي جلدها بالتبن وأدخلت على *المنصور*. يضاف إلى ذلك أنه كان يرسل *للمنصور*

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

نوعاً من التمر يبلغ حجم التمرة منها حجم الخيار.... [*السلاوي*، ج ١، ٢١١ / *مفاخر البربر*، ٢٧].

إلا أن هذه العلاقات الطيبة لم تلبث أن توترت وتغيرت على أثر زيارة قام بها زيري إلى الاندلس. يقول المؤرخون انه عند عودته وعبوره مضيق جبل طارق ووضعه قدمه على أرض طنجة، لبس العمامة وخاطب أرض وطنه قائلاً: «الآن عرفت أنك لي» [*مفاخر البربر*، ٢٢] وهي عبارة دلت على أنه ينوي الاستقلال.

في ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م ثار على *المنصور* وطرد جميع عماله من المدن المغربية، إلّا من القواعد العسكرية الأموية المشرفة على المضيق وفي مدن سبتة وطنجة ومليلة. عن أسباب هذا التغير قيلت علل عديدة متنوعة. قيل مثلاً أنه استقل المرتب السنوي الذي يمنحه *المنصور*. وقيل انه كان يرى لقب الوزير الذي اطلقه عليه *المنصور* مدعاة للتحقير بحيث انه عندما نودي بهذا اللقب صاح: «وزير من، ياسيّئ الحظ؟ كلا والله! إلا أمير ابن أمير! عجباً من ابن أبي عامر هذا وحماقته! أن تسمح بالمعيدي خير من أن تراه! والله لو أن في الاندلس رجلاً واحداً لما تركه وشأنه. اننا ولا شك نعدّ له حرباً (وفي بعض الأقوال: اسوداً)! [*ابن خلدون*، بلا تاريخ، ج ٢، ٤١ / *السلاوي*، ج ١، ٢١١ / *ابن أبي زرع*، ١٩٣٦ م، ج ١، ١٦١]».

قيل أيضاً في أسباب هذا الخلاف ان زيري استقبح تعامل *المنصور* الاستبدادي مع الخليفة *هشام*. وفي الوقت نفسه كانت علاقة صبح القلبية *بالمنصور* قد تغيرت أيضاً بسبب تعامله الاستبدادي مع ابنها *هشام*، حتى قال بعض المؤرخين انها فكرت في إعداد جيش من غرب افريقيا بتمويل منها من أجل القضاء على *المنصور* واسقاطه، لذلك أخذت الأموال الموجودة في بيت المال التابع لقصر الخلافة في مدينة الزهراء وجمعتها في أكواز لكي تهديها إلى *زيري بن عطية*، حليفها في المغرب. إلّا أن *المنصور* عرف ذلك من عيونه واستولى على الهدية قبل إرسالها. ولكيلا يقع مثل ذلك بعدئذ، نقل بيت المال من مدينة الزهراء الى المدينة الزاهرة، وهي المدينة التي كان قد بناها لنفسه [*ابن بسام*، ١٩٧٩ م، ج ٤ (١)، ٥٢ ـ ٥٤ / *ابن عذارى*، ج ٢، ٣٠٢].

الظاهر أن هذا الحدث الاخير هو السبب الرئيس في وقوع النزاع، خاصة وإن ما كان يذاع من شعار في ميادين القتال من الجانبين يكشف عن هذا الأمر ويؤكده، فشعار جيش *زيري* كان: «*هشام*، أي منصور!» وشعار جيش *المنصور* كان: «يا منصور!» [*مفاخر البربر*، ٢٩] والفرق واضح بين المعنيين.

يؤخذ من المصادر التاريخية أنه على أثر الحروب المتعددة التي وقعت في طنجة وفاس بين الطرفين كان النصر سجالاً بينهما (٣٨٧ ـ ٣٨٨ هـ / ٩٩٧ ـ ٩٩٨ م)، وفي النهاية استطاع عبد أسود ـ *كافور بن سلام*ـ أن ينسلّ إلى خيمة *زيري* ـ الذي كان قد قتل أخاه من قبل ـ وغرز رمحاً في عنقه، وهرب إلى معسكر *عبد الملك بن المنصور* يطالبه بمكافأة قتله *زيري*. بعض المؤرخين يرون هذا الرأي ولكن برمح ابن عمه *خير بن مقاتل* [*ابن أبي زرع*، ج ١، ١٦٤ ـ ١٦٥ / *ابن عذارى*، ج ٢، ٤٢١].

وهكذا أعاد *المنصور* سيطرته على فاس وتادلا وسجلماسة والمدن المهمة الأخرى في المغرب الأقصى، ونصب مملوكه الصقلبي *واضح*، حاكماً هناك باسم الدولة الأموية في الاندلس (٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م) [*مفاخر البربر*، ٢٩ و ٣٠ / *ابن أبي زرع*، ج ١، ١٦٥ ـ ١٦٧].

مع كل هذا، *القاضي صاعد* يعتبر *ابن أبي عامر* فيما يتعلق بتاريخ العلم والمعرفة في أسبانيا الإسلامية شخصية سلبية بل مخربة، لأنه منذ بداية سيطرته على *هشام المؤيد بالله* الذي كان صبياً غير ناضج، أباد المكتبات العظيمة التي انشأها أبو *الحكم المستنصر*، لمجرد ارضاء عوام الناس في الاندلس وجلب ميلهم. لقد

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

أحرقت بأمره كتب قيمة جداً ألفت في المنطق والنجوم والعلوم العقلية، أو أنها ألقيت في آبار قصر الخلافة وطمروها بالتراب والأحجار. كان هذا أمراً فاجعاً وكارثة في تاريخ العلم، لأنه دفع كل من كان يعرف شيئاً من هذه العلوم إلى كتمان ما يعرف، وبذلك اتخذ العلم سبيله نحو الانحطاط منذئذ [*القاضي صاعد*، ٢٤١ و ٢٤٢] ولم يظهر بعد ذلك أي تقدم في العلم، باستثناء القليل الذي حدث على أيام ملوك الطوائف.

إن ما يلفت النظر هنا هو سيطرة صبح أم هشام، على أمور الحكم والخلافة، مما يؤكد نظرية *القاضي صاعد* في بيان أسباب الانحطاط العلمي والثقافي في جهاز الخلافة كدليل ثابت على صدق النظرية، وعلى الرغم من أنه قد بين نظريته بياناً عاماً [*القاضي صاعد*، ٢١٥] إلّا أنه في هذا الجانب أيضاً تكلم عابراً.

بعد موت *ابن أبي عامر* خلفه ابنه *عبد الملك* ولقب نفسه بلقب *المظفر سيف الدولة*، ومنحه هشام جميع المناصب التي منحها لأبيه.

بدأ *عبد الملك* عمله بأن وهب سدس الضرائب لأهل جميع المدن، ثم اخذ ينشر العدل ويحمي الشريعة، وعمد الى القضاء على اعداء الدين واقتلاع جذورهم، فأصبح عهده بعيداً بعض الشيء عن المشاكل والفتن [*ابن الخطيب*، ١٩٥٦ م، ٨٤ و ٨٥].

تابع *عبد الملك* سياسة أبيه في عمارة المدن وبنائها، وفي إقامة العلائق الطيبة مع سواحل المغرب في افريقيا، واستعاض عن *واضح* في حكم المغرب بابن *زيري بن عطية*، *المعز المغراوي* (٣٩٧ هـ / ١٠٠٧ م) [*ابن عذارى*، ج ٣، ٧ / مفاخر البربر، ٤٠ / *السلاوي*، ج ١، ٢١٧].

وبعد سبع سنوات من الحكم مات في ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م، ويقال ان اخاه *عبد الرحمن* قد دس السم له.

عبد الرحمن ـ الذي كانت أمّه تدلّله باسم سانشو الصغير، بينما عامة الناس كانوا يسمونه اللعوب ـ تسنم الحكم بعد أخيه. كان *عبد الرحمن* شاباً مغروراً أحمق ولا ارادة له. لذلك طمع في بقايا السلطة المعنوية والقوة الروحية القليلة التي كانت باقية للخليفة الأموي *هشام* وطلب منه أن يعلنه ولياً للعهد. *هشام* البسيط الساذج كتب ولاية العهد باسمه [*ابن الخطيب*، ١٩٥٦، ٩٠ و ٩١].

لم يمض على هذا التنازل من جانب الخليفة حتى أسبغ *عبد الرحمن* على نفسه ألقاب الخلافة مثل: ناصر الدولة، والناصر لدين الله، حتى يصبح ـ كما كان يظن ـ مثل *عبد الرحمن الناصر*. كما أنه لقب نفسه بالمأمون وكان يرتدي رداء الخلافة ويمشي به مختالاً، وكان يستقبل الناس في قصر الزاهرة في الأعياد والتهاني.

الأمويون في الاندلس كانوا يرون في ذلك تحقيراً لهم، فانبروا يقفون في وجهه وأنقذوا *هشاماً* من براثن *عبدالرحمن* ودسوا له السم وقتلوه وبايعوا عمه *محمداً المهدي* الذي هدم المدينة الزاهرة وانتقم من جميع المنتسبين لابن *أبي عامر*، وأخيراً اغتيل هو أيضاً (٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م) [*النويري*، ١٩٢٣ ـ ١٩٧٥ م، ج ١، ٧٤]. وبعد ذلك بدأ عهد ملوك الطوائف في الاندلس.

ملوك الطوائف والوضع في طليطلة، عاصمة بني ذي النون

الانتفاضة التي قامت ضد أولاد *المنصور بن أبي عامر* انقلبت الى انتفاضة أشد وأوسع ضد الحكم الأموي في الاندلس كلياً وقضت على الخلافة الأموية هناك.

وعلى أثر ذلك قام البربر والمولدون والقبائل العربية بتقسيم الاندلس فيما بينهم واسسوا حكم ملوك الطوائف [*ابن الخطيب*، ١٩٥٦ م، ٩١ و ٩٢ / *عنان*، ١٩٦٠ م، ج ٢، ٩٥ و ٩٦].

وكان من نتائج ذلك أن سيطر أبناء *زيري* على غرناطة (٤٠٣ ـ ٤٨٣ هـ / ١٠١٢ ـ ١٠٩٠ م). واستولى بنو حمود على ملقا (٤٠٧ ـ ٤٦٩ هـ / ١٠١٦ ـ ١٠٥٧ م)

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

واستولى بنوهود على سرقسطة (٤١٠ ـ ٤٢١ هـ / ١٠١٩ ـ ١٠٣٠ م)، وبنوعامر استولوا على بلنسية (٤١٢ ـ ٤٥٧ هـ / ١٠٢١ ـ ١٠٦٥ م)، وبنوالأفطس استولوا على بطليوس (٤١٣ ـ ٤٨٥ هـ / ١٠٢٢ ـ ١٠٩٢ م)، وبنوعباد استولوا على اشبيلية (٤١٤ ـ ٤٨٤ هـ / ١٠٢٣ ـ ١٠٩١ م)، وبنوجهور استولوا على قرطبة (٤٢٢ ـ ٤٦٢ هـ / ١٠٣١ ـ ١٠٧٠ م)، وبنوذي النون استولوا على طليطلة (٤٢٦ ـ ٤٧٨ هـ / ١٠٣٥ ـ ١٠٨٥ م)، وبنوالصمادح استولوا على المريّة (٤٣٥ ـ ٤٨٤ هـ / ١٠٤٤ ـ ١٠١٩ م) و....[٦].

بعد سقوط الخلافة الأموية، كانت مدينة طليطلة لفترة ما تحت اشراف *القاضي أبي بكر، يعيش بن محمد بن يعيش الاسدي*، فكان يدير شؤون المدينة السياسية والاجتماعية بالتشاور مع تجار مثل *ابن مسرّة* و*عبد الرحمن بن متيوه* [*عنان*، ج ٢، ٩٥]. ولكن بعد أن أقال كبار أهل المدينة *ابن يعيش* الذي مات في قلعة أيوب سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٩ م، وبعد موت *عبد الرحمن بن متيوه*، خلفه ابنه *عبد الملك* في الحكم على طليطلة، ولكن بالنظر لسوء تصرفاته، اضطربت أمور المدينة، فصمم الأهالي على تحرير أنفسهم من اولئك الكبار وأبناء الكبار، فبعثوا برسول الى *عبد الرحمن بن ذي النون* في شنتبرية طالبين منه قبول الرئاسة عليهم، فارسل اليهم ابنه *اسماعيل* في ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م لحكمهم[٧].

بعد أن تسلم *اسماعيل* الحكم على طليطلة وضواحيها، أطلق على نفسه لقب *الظافر* ومد سلطانه الى المدن الأخرى المجاورة، وعين في منصب الوزارة لادارة شؤون البلد كبير أهالي طليطلة، *أبا بكر يحيى بن سعيد الحديدي*، وكان فقيها عالماً ذكياً محترماً لدى أكثرية الأهالي، فلم يكن يرفض له مشورة أو نصيحة حتى مات سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م [*ابن الخطيب*، ١٩٧٤، ج ٢، ١٧٧ / *ابن بسام*، ج ٤ (١)، ١١٣].

هذه الشخصية هي نفسها التي صلّت فيما بعد على جنازة *القاضي صاعد* في شوال ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م [*ابن بشكوال*، ج ١، ٢٣٢]. يمكن من هذا معرفة مكانة *القاضي صاعد* السياسية والاجتماعية والثقافية في مجتمع يومذاك، وخاصة في مدينة طليطلة.

بعد *اسماعيل* جاء الى الحكم ابنه *يحيى*، ولقب نفسه *بالمأمون*، ومثل أبيه أبقى *ابن الحديدي* في الوزارة وجعل رأيه سنداً لإدارة أمور الدولة، في أيامه ازدادت رقعة مدينة طليطلة اتساعاً، وهو نفسه أصبح من أكبر ملوك الطوائف في الاندلس [*ابن بسام*، ج ٤ (١)، ١١٣ / *ابن الخطيب*، ١٩٧٤، ج ٢، ١٧٧].

دام حكم *المأمون* ٣٣ سنة مليئة بالمنازعات والحروب، منها الحروب بينه وبين خصميه القويين: *ابن هود* حاكم سرقسطة، و*ابن عباد* حاكم اشبيلية [*عنان*، ج ٢، ٩٦].

سليمان بن هود ارسل مبلغيه والدعاة له الى منطقة واسعة من مدينة قلعة أيوب حتى مدينة وادي الحجارة من توابع طليطلة، وبعد ذلك سيّر جيشاً بقيادة ابنه وولي عهده *أحمد*، واستولى على المنطقة (٤٣٦ هـ / ١٠٤٤م) وهزم *المأمون ذو النون*، الذي انبرى للدفاع عن المنطقة هزيمة بعد أخرى حتى حاصره في مدينة طلبيرة، ولكنه بعد وصول رسالة من أبيه يستدعيه، ترك المحاصرة وعاد الى سرقسطة، تاركاً *المأمون* وحاله. إلّا أن *المأمون* من أجل الانتقام من *ابن هود* ارتكب أفدح خطأ في حياته بطلبه العون من ملك قشتالة، *فرناندو الأول*، وبذلك وضع نفسه تحت حمايته وقبل أن يدفع له الجزية [*ابن عذارى*، ج ٣، ٢٧٨].

من طرف آخر، ارتكب *سليمان بن هود* الخطأ نفسه بارساله الأموال والتحف إلى *فرناندو* طالباً منه مهاجمة *ابن ذي النون*، فقبل *فرناندو* ذلك وهاجم منطقة شمال طليطلة بقواته.

كذلك قام *المأمون* بالتعاون مع أخي *فرناندو*، *غارسيا* ملك نبرة، وأرسل اليه بالأموال الطائلة لافتاً نظره إلى

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

الأراضي المجاورة له من ممتلكات *ابن هود*، فهاجم هذا مدينتي تطيلة ووشقة واستولى على قلعة قلهرّة [*ابن عذارى*، ج ٣، ٣٧٨].

وفي الطرف المقابل قام *ابن هود* بالتعاون مع حلفائه المسيحيين بالهجوم على مدينة سالم وقتل من الناس مقتلة عظيمة فاجعة، واستولى على العديد من الحصون والقلاع في المنطقة. والعجيب أن *عبدالرحمن ذا النون*، أخا *المأمون*، كان يحارب أخاه الى جانب *ابن هود* [*عنان*، ج ٢، ٩٨] .

وقد أسرع *المأمون* لانقاذ مدينة سالم، ولكن المسيحيين حلفاء *ابن هود* هجموا في الوقت نفسه على طليطلة وانزلوا الويلات والدمار والفجائع بالأهالي بحيث أنهم لم يجدوا بداً من ارسال مبعوث الى *فرناندو* طالبين الصلح. إلا أنه طلب أموالاً كثيرة وفرض شروطاً ثقيلة للصلح مما عجز عنه الناس. وفي الوقت نفسه أخذ *غارسيا*، حاكم نبرة وحليف *ابن ذي النون*، يجوس خلال ديار *ابن هود*، وخلال ثلاث سنوات (٤٣٥ـ٤٣٨ هـ / ١٠٤٣ ـ ١٠٤٦ م) ظلت الحرب سجالاً بين هذين الحاكمين التعيسين من ملوك الطوائف في الاندلس، ولم تجلب تلك الحروب للأهالي المسلمين سوى الشقاء والفقر والتعاسة[٨].

تلك السنوات التي صادفت مرحلة شباب *القاضي صاعد*، كانت في الحقيقة أوج مرحلة المنافسات الانتحارية والمدمرة لملوك الطوائف فى الاندلس التي جرّتهم وأتباعهم الى الهلاك [*عنان*، ج ٢، ٩٩]، مؤكدين مقولة *ابن خلدون*: «الدول لها أعمار طبيعية كما للاشخاص» [*ابن خلدون*، ١٣٣٦ هـ، ٣٠٤]. أما *القاضي صاعد* الذي لم يكن يرى ـ على الظاهر ـ أي طريق للنجاة من ذلك المستنقع إلّا بتنمية الثقافة العقلية للمجتمع، فقد أشغل نفسه في مرصده مع زملائه المجدّين بالتحقيقات العلمية والرصد والتأليف والتدريس وصنع ادوات رصد النجوم المبتكرة، انشغال العاشق المؤمِّل [Suter, 1986, 106 - 107, vol.1 / Plessnet, 1956, 237]، ولم يبخل بالصرف من أمواله وثروة أسرته على زملائه وتهيئة ما يلزمهم من وثائق ومستندات في دراساتهم العلمية والنجومية. وهو في ذلك لم يميز مطلقاً بينهم من حيث الدين والمذهب، وكان منهم السني والشيعي الاسماعيلي واليهودي. [Suter, 106 - 107, Vol.1 / Plessnet, 237]، وبذلك أكد عملياً ايمانه الخاص بوحدة الانسان ذاتياً. [*القاضي صاعد*، ١٤١].

عندما مات *سليمان بن هود* قسمت مملكته بين أبنائه الخمسة، وعلى الرغم من توقف الحرب بينه وبين *المأمون ذي النون*، إلّا أنها اندلعت مع *بني الافطس* من ملوك الطوائف الى الغرب من مملكته. وقد جرت أقسى الحروب في حوالي ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م مع *المظفر بن الأفطس* حاكم بطليوس، دون أن يصل الى نتيجة معقولة [*عنان*، ج ٢، ٩٩].

هذه المناوشات التي كانت تحدث بين الدول الاسلامية المتخاصمة أضعفتهم يوماً بعد يوم، بينما كان *فرناندو* من جهة أخرى، يزداد قوة لحظة بعد لحظة بحيث انه في ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م استولى على القسم الشمالي من طليطلة برمته حيث أراق الدماء ونهب الأموال، دون أن يكون للمأمون مهرب من دفع الجزية صاغراً [*عنان*، ج ٢، ٩٩].

بعد موت *فرناندو* في ١٠٦٥ م، اندلعت حرب بين ابنائه الثلاثة: *سانشو* حاكم قشتالة، و*ألفونسو* حاكم ليون، و*غارسيا* حاكم جلّيقية، على من منهم يخلف أباه. الحرب الاولى كانت في ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م وانتهت بانتصار *سانشو* على أخويه، فيما كان *غارسيا* في هذه المخاصمات تحت حماية *ابن عباد* حاكم اشبيلية، ولكن *الفونسو* لجأ إلى *المأمون ذي النون* واستقر عنده مكرماً نحو تسعة أشهر في البلاط في طليطلة. وعندما قتل أخوه *سانشو* في الحرب مع أُخته *أوراكا*، ترك طليطلة الى ليون وجلس

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

على العرش، وبالنظر للمعلومات التي اطلع عليها عن طليطلة عند اقامته فيها، أخذ يخطط للاستيلاء عليها [*ابن عذارى*، ج ٤، ٢٣٢ / *ابن بسّام*، ج ٤ (١) ١٢٤].

في تلك الأيام دخل *المأمون* في حرب حاكم بلنسية، *عبد الملك بن عبد العزيز بن المنصور بن أبي عامر*، وكان زوج اخته، فغلبه واستولى على ملكه[٩].

كذلك سعى في الاستيلاء على قرطبة التي كانت حينذاك ضمن دولة بني جهور، فطلب *عبدالملك بن جهور* العون من صديقه *المعتمد بن عباد* الذي طرد *المأمون* من محاصرة المدينة بمعونة قائديه، *خلف بن نجاح* و*محمد بن مرتين*، وقام هو بالقضاء على حكومة بني جهور في قرطبة، وعيّن ابنه الحاجب *سراج الدولة بن محمد بن عباد* مع جيش يقوده *ابن مرتين* والذي كان قد ارسل معه، في ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م. إلّا أن *المأمون* كان ما يزال معنياً بالاستيلاء على مدينة قرطبة، وأخيراً وبمعونة *الحكم بن عكاشة* الذي كان سجيناً وطريد *ابن عباد* استطاع أن يحقق أمنيته (جمادى الثانية ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م)، ولكن بعد بضعة أشهر، في أواخر ذي القعدة من السنة نفسها مات، و*ابن عكاشة* بالنيابة عن *يحيى القادر ذي النون* قام بادارة حكومة قرطبة، ولكن الأهالي الذين لم يرضهم ذلك طلبوا العون من *المعتمد بن عباد*، وخرج هو نفسه على رأس جيش الى قرطبة وقبض على *ابن عكاشة* وشنقه مع كلب من باب التحقير[١٠].

ان فترة الثلاث والثلاثين سنة التي حكم فيها *المأمون* ذو النون في طليطلة كانت تمتاز بشيء من الرفاه النسبي وتعمير المدن وتجميلها والإكثار من تشييد القصور في حقبة حكم ملوك الطوائف الاسلامي في أسبانيا، على الرغم من المخاصمات والحروب المتوالية وما جرته من الخراب والدمار. لذلك يشير *القاضي صاعد* الى *المأمون أبي الحسن يحيى الظافر* على أنه «كبير ملوك الطوائف في الاندلس» أو «*المأمون ذو المجد*» [*القاضي صاعد*، ٢٣٧ و ٢٥٤].

الأموال الضخمة التي جمعها *المأمون* صرفها في بناء القصور الفخمة الضخمة التي لم يكن لها نظير[١١].

على الرغم من ذلك، فان بلاطه قلما ورد ذكره في ثقافة ذلك الوقت وشعره، وخاصة في العلوم، قياساً الى ما سبقه، مع أن بلاطات الحكام في اشبيلية والمريّة وبطليوس وغيرها لم تكن تبلغ شأو طليطلة، بل كانت أدنى منها عموماً، وكان التقدم العلمي كما يقول *القاضي صاعد* في حال الانحطاط الكامل [*القاضي صاعد*، ٢٤٣].

طبيعي في طليطلة كان يعيش تحت رعاية *المأمون* أدباء وعلماء كبار، منهم *ابن أرفع رأسه* الشاعر المشهور صاحب الموشحات والمتخصص في الأدب الاندلسي والعارف بالعقاقير الطبية، و*ابن بصال الطليطلي*، وأعظمهم العلامة الرياضي والحكيم والعالم الجامع ذو الفنون، و*القاضي صاعد* الطليطلي الذي كان يلقي دروسه على طلابه في جامع طليطلة، وألف كتاباً في تاريخ علوم العالم باسم *كتاب التعريف بطبقات الأمم*، وكان القاضي الرسمي في بلاط *المأمون* [*ابن بشكوال*، ج ١، ٢٣٢ / *عنان*، ج ٢، ١٠٤].

فيما يتعلق بضعف ملوك الطوائف وعلة ذلك يقول *ابن خلدون* بعبارة واضحة ودقيقة: «عندما فقد بنو أمية العصبية العربية غلبهم ملوك الطوائف ورؤساء القبائل على أمرهم وقسموا أرضهم فيما بينهم، ثم راحوا يتنازعون فيما بينهم... وكان هؤلاء يستندون الى مواليهم وربائبهم بحيث ان الدولة الاموية بقيت في المؤخرة» [*ابن خلدون*، ١٣٣٦ هـ ١٥٥].

قبل *ابن خلدون*، *القاضي صاعد* الذي امضى عمره الثر والقصير (٤٢ سنة) يشاهد بذكائه الفريد سير الاحداث في عهد ملوك الطوائف، عرّف ظاهرة ملوك الطوائف الاندلسية بقوله: «السلطة المركزية لبني أمية في الاندلس تشتّتت وقسمت بين عدد من رؤساء الطوائف وأصبحوا أشبه بحالة ملوك الطوائف الإيرانية» [*القاضي صاعد*، ٢٣٦].

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

نلاحظ هنا أن *القاضي صاعداً*، من أجل بيان الظاهرة الاجتماعية السياسية، لملوك الطوائف يستخدم تعبير «التشابه» الذي يعتبر اليوم من أفضل التعابير لبيان الظاهرات العلمية، وخاصة في الكتب الدراسية لاختزال الوقت الذي يصرفه الطلاب للوصول الى النتيجة.

في نظر *القاضي صاعد* ملوك الطوائف حالة واحدة سواء التي كانت في ايران بعد هجوم الاسكندر، أو التي حصلت في أسبانيا المارة بمرحلة الحكم الاستبدادي العامي والمناوئ للحكمة على عهد *المنصور بن أبي عامر*! اننا في هذا النظام نشاهد تقسيم سلطة واحدة مركزية الى عدد من القوى النافرة عن المركز والمتخاصمة، الامر الذي يؤدي يوماً بعد يوم الى الاضمحلال والإقتراب الى الفناء المطلق. لذلك فمن الواضح ألّا يكون في مثل هذا المجتمع أي تقدم بمفهومه العام المطلق، وكل تغيير في الاقتصاد والثقافة والعمارة والسياسة وسير العلوم والمعرفة في هذا المجتمع المشحون بالمنازعات والمصادمات، يكون تراجعياً [*القاضي صاعد*، ٢٣٦].

بناء على ذلك، لم تكن حالة ملوك الطوائف الاندلسية قادرة قطعاً على الثبات أمام هجوم الاسبان، بل انهم فقدوا في فترة قصيرة أراضيهم كلها، فكان أن سقطت صملنكة في ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م، و*ألفونسو السادس*، ملك قشتالة (٤٦٤ ـ ٥٠٣ هـ / ١٠٧٢ ـ ١١٠٩ م) أنزل في ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م هزيمة منكرة بالمعتمد *بن عباد* حاكم أشبيلية واخضعه لحكمه وتزوج ابنته، كما أنه استولى في ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م على طليطلة [*العقيقي*، ١٩٦٤ م، ج ١، ٥٤].

الوضع السياسي ـ الاجتماعي في الاندلس بعد مرحلة ملوك الطوائف

على أثر سقوط طليطلة رأى الفقهاء المسلمون في الاندلس بعد التشاور فيما بينهم، أن من المصلحة أن يستعينوا بالمرابطين (٤٨٠ ـ ٥٤٠ هـ / ١٠٨٧ ـ ١١٤٥ م) الذين كانوا يحكمون في شمال افريقيا، لمواجهة حملات الأسبان، فارسلوا وفداً من القضاة الى مراكش، فقبل *يوسف بن تاشفين* طلبهم العون ورحل بنفسه الى الاندلس وأعان *المعتمد* حتى استطاع أخيراً أن يهزم *ألفونسو السادس* في معركة الزلاقة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) [*العقيقي*، ج ١، ٥٤]. الا أن يوسف نفسه كان طامعاً في حكم الاندلس، فخلع ملوك الطوائف، وأبعد *المعتمد* ووزيره الى مراكش، وسكّ النقود باسمه، وهدم كنيسة المستعربين، أي المسيحيين العرب، وأهل الذمة في غرناطة (٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م).

بعده جاء ابنه *علي* (٤٩٩ ـ ٥٣٨ هـ / ١١٠٦ ـ ١١٤٣ م)، وفي (٥١٢ هـ / ١١١٨م) أبعد عدداً كبيراً من المسيحيين الى مراكش، ثم قتل في ٥٢٠ هـ / ١١٢٤ م مستعربي غرناطة، ولكن لا هو ولا خلفاؤه استطاعوا الوقوف بوجه الهجمات المتوالية للحكام الاسبان والبرتغاليين كما أن *ألفونسو السابع* ملك قشتالة، ما أن تم تتويجه في ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م حتى راح يعد العدة للهجوم على قرطبة، ثم استولى عليها ودخلها فاتحاً في ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م. كذلك قام *ألفونسو الاول* ملك البرتغال، في ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م، بالاستيلاء على لشبونة [*العقيقي*، ج ١، ٥٤].

وهكذا، مثلما لم يستطع ملوك الطوائف الوقوف بوجه هجمات المسيحيين الشماليين، كذلك لم يستطع المرابطون أن يفعلوا شيئاً واصيبوا بالداء نفسه الذي أصاب ملوك الطوائف من قبل، أي الفساد والضعف والتهاون [*العقيقي*، ج ١، ٥٤].

بعد ذلك هزم الموحدون (٥٤٠ ـ ٦٢٢ هـ / ١١٤٥ ـ ١٢٢٥م) المرابطين في عدد من الحروب (٥٤٧ هـ / ١١٥٢م) في الجزائر وفي (٥٥٥ هـ / ١١٥٨ م) في تونس، وفي (٥٥٧ هـ / ١١٦٠ م) في طرابلس، وقام *ابن قسي مرتولي*، بطلب من هؤلاء بالإغارة على الاسبان واستعاد بعض المدن، مثل قرطبة، ومن ثم هزموا *ألفونسو الثامن*

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

بالتعاون مع بعضهم بعضاً في (٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م)، ولكنه انتصر عليهم في حرب العقاب في (٦٠٩ هـ / ١٢١٢م)، ثم عقد معاهدة صلح مع المسلمين لكي يجنب نفسه من مكر المسيحيين الاعداء.

فرديناند الثالث (٦١٤ ـ ٦٥٠ هـ / ١٢١٧ ـ ١٢٥٢ م) حاكم ليون، استولى على قشتالة في ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م وألحقها بليون، واستولى ثانية على قرطبة وبدل مسجدها الجامع الى كنيسة (٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م)، ثم استولى على بلنَسية في ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م، وعلى مرسية في ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م، وعلى اشبيلية في ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨م واختارها عاصمة له وسكن في قصرها. ثم في ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م استولى على قادس، وتوقف عند ابواب غرناطة (*العقيقي*، ج ١، ٥٣).

كانت غرناطة يومذاك تحت حكم بني الاحمر (٦٢٩ ـ ٨٩٨ هـ / ١٢٣٢ ـ ١٤٩٢ م) من بقايا ملوك الطوائف. لقد استطاعت هذه السلسلة أن تقاوم حملات الاسبان مدة قرنين ونصف.

محمد الاول (٦٤٦ ـ ٦٧١ هـ / ١٢٤٨ ـ ١٢٧٢ م) شيد «القصبة الحمراء» وبرجها «الطليعة». ابنه الذي خلفه *محمد الثاني* (٦٧١ ـ ٧٠١ هـ / ١٢٧٢ ـ ١٣٠٢ م) قوى من مركزه بالاستناد الى بني مرتين. *محمد الثالث* (٧٠١ ـ ٧٠٩ هـ / ١٣٠٢ ـ ١٣٠٩ م) من حكام هذه الاسرة شيد قصراً في قصبة الحمراء وبنى الى جانبه مسجداً جامعاً وأوقف على المسجد الحمام الذي كان يواجهه. *يوسف ابو الحجاج* (٧٣٤ ـ ٧٥٥ هـ / ١٣٣٤ ـ ١٣٥٤ م) بنى جامع غرناطة الذي أصبح بمثابة جامعة، وكان ذا ثلاثة أقسام، وما يزال من أجمل الآثار الإسلامية القيمة في الاندلس وأروعها الباقية حتى الآن.

بعد *محمد الخامس* جاء ملوك ضعفاء كانوا على خصام دائم فيما بينهم، فيما كانت فرنسا في الوقت نفسه، تحت حكم *لويس الحادي عشر*، تتوحد تدريجياً وانجلترا تحت حكم *هنري السابع*، كانت في حالة التوحد أيضاً. كذلك كان الحال في المانيا اذ توحدت تحت حكم امبراطورية واحدة. وفي ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م تزوج *فرديناند الخامس* من *ايزابلا* واتحدت دولتاهما، وبهذا الاتحاد استطاعوا بكل سهولة الاستيلاء على غرناطة في ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م.

عقد الفاتحون معاهدة في ٥٥ مادة مع المسلمين، تتضمن الامان لأرواحهم وأموالهم وحريتهم في أداء شعائرهم الدينية. ولكن الذي يؤسف له أن المسلمين لم يستفيدوا من ذلك سوى لمدة سبع سنوات فحسب، وذلك لانه بعد تلك الاتفاقية حمل الأساقفة حملة شعواء على الفاتحين وضايقوهم قائلين: لماذا يجب أن يكون نصف أموال القتلى والفارين من نصيب المسلمين؟ ومن أسباب النقد الأخرى هي أن الفاتحين كانوا قد صادروا أملاك المعابد وخزائن الكنائس وكانوا يعينون ويعزلون الأساقفة كما يشاؤون، وأنهم كانوا يسكتون امام انتقادات فقهاء المسلمين، وغير ذلك.

في هذه المرحلة التحق ملوك أسبانيا المسيحيون بمحاكم تفتيش العقائد (٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م) التي عرفوها عن طريق الألمان، الذين عرفوها في ٥٩٠ هـ / ١١٩٤م، فيما أقامها الفرنسيون في ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م، والايطاليون في ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م.

كانت هذه المحاكم قد أسست في أوروبا لمعاقبة المسيحيين المرتدين الضالين ولحفظ سلامة عقلهم الديني، وكانت تعذب المسلمين وتحرق كتبهم بحيث لم يكن أي مسلم ينجو من سكين مقصلتها، إلّا الذين كانوا يرتدون عن إسلامهم أو يعملون بالتقية.

مسلمو الاسبان الذين كانوا يواجهون هذا العذاب، اضطروا الى الهجرة من أوطانهم كما حصل في السنوات ٨٩٧ ـ ٩٠١ هـ / ١٤٩٢ ـ ١٤٩٦ م، و ٩٢٠ ـ ٩٨٩ هـ / ١٥١٤ ـ ١٥٨١ م، و ٩٨٩ ـ ١٠٨٨ هـ / ١٥٨١ ـ ١٦٠٩ م.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

بعضهم هاجر الى إيطاليا، وبعض الى جنوب فرنسا، وجماعة هجّروا الى شمال افريقيا فسكنوا تطوان وسبتة والقصر الصغير وطنجة، ومن هناك انتقل بعضهم الى البرتغال بين حين وآخر عن طريق البر والبحر، حتى أنهم في وقت ما تمكنوا من أسر أكثر من ثلاثة آلاف من الاعداء. وثمة آخرون ذهبوا الى تونس وسكنوا في محلتي شارع الاندلس وحومة الاندلس.

هؤلاء المشردون الذين قطنوا في بيوت في شمال افريقيا، ظلوا الى مدة طويلة يحتفظون بمفاتيح بيوتهم القديمة في قرطبة وأشبيلية وغرناطة وغيرها، معلقة على جدران البيوت التي سكنوها لكي يبينوا للأهالي أنهم في يوم ما كانت لهم بيوتهم ومراكزهم في ديارهم! لقد ساهم هؤلاء في التقدم العلمي والصناعي والتجاري في شمال افريقيا مساهمة تتطلب الدرس والتحقيق. وقد رحل بعض من هؤلاء الى الاسكندرية.

واليوم، من الباقين من الأقوام العربية المسلمة في شبه جزيرة آيبيريا، جماعات تحمل اسماء: مركيزالداما، مدور، الكونت دوكافيا وغيرهم معروفون هناك، بل وصل بعضهم في اسبانيا الى المناصب الوزارية، وحتى رئاسة الوزارة.

الهوامش

١ـ لم يقل أبو الفداء شيئاً عن الدال، ولكن الحموي في معجم البلدان يضبط الدال بالفتح والضم، ثم يضيف «بالضم ليس إلاّ» ـ المترجم.

٢ـ معمورة الأرض تقسم إلى سبعة أقسام وهي الأقاليم ومفردها الإقليم، وكل إقليم يبدأ من الشرق وينتهي في الغرب [الخوارزمي، ١٣٤٢هـ ٣١٨ و ٣١٩].

٣ـ أُنظر:

- ابن خلدون، العبر، بلا تاريخ، ج ٤، ١٢٠ ـ ١٢٤.
- المقري، نفح الطيب، ١٩٤٨م، ج ١، ١٥٥ ـ ١٥٨ و ج ٢، ٧٠١ ـ ٧٦١.
- ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ١٨٤٨ ـ ١٨٥١م، ٩ و ١٠.
- دوزي، تاريخ مسلمي أسبانيا، ١٩٦٣م، ج ١، ٢٩٧ ـ ٣٨٧.

٤ـ للاطلاع على تاريخه أُنظر:

- الگيلاني، نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي، ١٩٢٤م، ١١٠ ـ ١٢١.

٥ـ أُنظر:

- ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ١٩٣٦م، ج ١، ١٤١.
- ابن عذارى، المصدر السابق، ج ٢، ٤١٩.
- السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ١٩١٠ ـ ١٩١٢م، ٢٠٣ و ٢٠٤.
- مفاخر البربر، بلا تاريخ، ١٧.
- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٩٥٦م، ٦٤.

٦ـ أُنظر:

- ابن بسّام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ١٩٧٩م، ج ٤(١)، ١١٠ ـ ١١١.
- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ١٩٧٤م، ج ٢، ١٧٦ و ١٧٧.
- ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٤، ١٦١.
- عنان، دول الطوائف، ١٩٦٠م، ج ٢، ٩٥.

٧ـ أُنظر:

- ابن بسّام، ج ٤(١)، ١١٠ و ١١١.
- ابن الخطيب، ١٩٧٤م، ج ٢، ١٧٦ و ١٧٧.
- ابن خلدون، ج ٤، ١٦١.

٨ـ أنظر:

- ابن عذارى، ج ٣، ٢٧٢ ـ ٢٧٧ و ٢٨٢.
- ابن الخطيب، ١٩٧٤م، ج ٢، ١٧٨.
- Dozy, R. Supplement Aux. Dictionnaires Arabe, 1881, 74, 75.

٩ـ أُنظر:

- ابن عذارى، ج ٣، ٥٢، ٢٥٣، ٢٦١، ٢٧٧، ٣٠٣.
- Dozy, والمصدر السابق ١٢٢ ـ ١٢٦

١٠ـ أُنظر:

- ابن الخطيب، ١٩٧٤، ج ٢، ١٥٨ و ١٥٩.
- ابن خلدون، ج ٤، ١٦١.
- Dozy, والمصدر السابق / 122 - 126

١١ـ أُنظر:

- الطرطوشي، سراج الملوك، ١٣٠٦هـ، ٤٥.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

● ابن بسّام، ج ٤(١)، ٩٩ـ ١٠٤، ١١٤.
● المقري، ج ٢، ٥٢٣.

المصادر

* *آل علي، نور الدين، اسلام در غرب، تاريخ اسلام در اروپاى غربى*، طهران، منشورات جامعة طهران، ١٣٧٠هـ.ش.

* *ابن أبي الزرع، ابو الحسن علي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*، الرباط، ١٩٣٦ م.

* *ابن الأثير، عز الدين علي، الكامل في التاريخ*، بيروت، دار صادر، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.

* *ابن بسام، أبو الحسن علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*، بسعي إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٩م.

* *ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك، الصلة في أئمة الاندلس*، بسعي عزت العطار الحسيني، القاهرة، ١٩٩٥ م.

* *ابن الخطيب، لسان الدين محمد، الإحاطة في أخبار غرناطة*، بسعي محمد عبدالله عنان، القاهرة، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤م.

* *ابن الخطيب، أعمال الاعلام*، بسعي لويس بروفنسال، بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٦ م.

* *ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر*، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بلا تاريخ.

* *ابن خلدون، المقدمة*، القاهرة، ١٣٣٦ هـ.

* *ابن خلكان، شمس الدين احمد، وفيات الأعيان*، بسعي احسان عباس، دار الثقافة، ١٩٧٧ م.

* *ابن عذارى المراكشي، ابو عبدالله محمد، البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب*، بسعي دوزي، ليدن، ١٨٤٨ ـ ١٨٥١ م.

* *ابن الفقيه، أبو بكر احمد بن محمد الهمداني، مختصر كتاب البلدان*، بسعي رينولد دوسلان، پاريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠ م.

* *احمد صادق، دولت، جغرافية العالم*، مصر، مكتبة الانجلو المصرية، بلا تاريخ.

* *اولاغوئة، إيجناسيف، هفت قرن فراز و نشيب تمدن اسلامي در اسبانيا*، طهران، شباويز، ١٣٦٥ هـ / ش.

* *البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن، مراصد الاطلاع*، بسعي علي محمد البجاوي، مصر، دار احياء الكتب العربية، ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م.

* *حميدة، عبد الرحمن وساطع محلي، دليل العالم*، دمشق، دار طلاس، ١٩٨٨ م.

* *الحميري، محمد بن عبدالله بن عبد المنعم، الروض المعطار*، بسعي احسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٠ م.

* *الخوارزمي، محمد بن أحمد، مفاتيح العلوم*، مصر، ١٣٤٢ هـ.

* *دائرة المعارف الاسلامية*، القاهرة، ١٩٣٣ م.

* *دوزي، ر. تاريخ مسلمي اسبانيا*، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٣ م.

* *السلاوي، أبو العباس أحمد، الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى*، القاهرة، ١٩١٠ ـ ١٩١٢ م.

* *الشكعة، مصطفى، الأدب الاندلسي*، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٣ م.

* *الطرطوشي، أبو بكر محمد بن رندقة، سراج الملوك*، القاهرة، ١٣٠٦ هـ.

* *العبادي، احمد مختار، في التاريخ العباسي والاندلسي*، القاهرة، ١٩٧١ م.

* *عنان، محمد عبدالله، دول الطوائف*، القاهرة، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م.

* *العقيقي، نجيب، المستشرقون*، مصر، دار المعارف،

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]

١٩٦٤ م.

* *القاضي صاعد الاندلسي، ابو القاسم صاعد بن احمد، التعريف بطبقات الامم*، بسعي غلام رضا جمشيد نژاد اول، طهران، دفتر نشر ميراث مكتوب، ١٣٧٦ هـ. ش.

* *كريزويل، ك. الآثار الإسلامية الأولى*، ترجمة عبدالهادي عبلة، دمشق، دار قتيبة، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

* *الگيلاني، كامل، نظرات في تاريخ الأدب الاندلسي*، القاهرة، مطبعة المكتبة التجارية، ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م.

* *مسعود، محمد، تعليقات بر دائرة المعارف الإسلامية*، ١٩٣٣ م.

* *مفاخر البربر*، بسعي لويس پروفنسال، مدريد، بلا عنوان.

* *المقري، أحمد، نفح الطيب*، بسعي احسان عباس، بيروت، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م.

* *النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب، نهاية الإرب في فنون الأدب*، القاهرة، ١٩٢٣ - ١٩٧٥ م.

* Dozy, R, Histoire des Musulmans d'Espagen, Leyden, 1861.

* Ibid, Supplement aux. Dictionmaire Arabe, Leyden, 1881.

* Plessner.m. Der Astronom und Historiker, Ibn Sa'id Al - Andalusi, Studi or ientali, Vol. xxxi, 1956.

* Suter, H, Beitrage Zur Geschichte der Mathematik und Astronomie in Islam, Frankfort, 1986.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-30]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.3.3.8]